أمر المؤمن كله خير

« عن أبي يحيى صهيب بن سنان رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

* * *

ما دام الانسان فى هذه الحياة الدنيا فهو عرضة للخير والشر ، لما يسوءه ولما يسره ، للفقر والغنى ، للمرض والصحة ، للعسر واليسر ، للاجتماع والافتراق . . وهكذا .

تلك طبيعة الحياة ، وهذه سنة الله فيها ، ومن شأن الانسان منذ خلقه الله أن يتأثر بالنعمة والنقمة ، وأن يهتز للخير والشر : قد تفسده النعمة وتطغيه فيبطر وينسى حق الله فيها ، ويعتز بنفسه ، ويغتر بقوته ، ولا يطيق لها احتمالا ، فتراه يظلم ويبغى ويقسو ويسرف ويعنُف ولا يقف فى شىء من ذلك عند حد ، كأنه قد ن الخلود ، وأخذ على الزمان عهداً ألا تزايله النعماء !

وقد تفسده الضراء فيجزع ويأس ، وتخور قواه ، وتعجز

حيلته ، ويستسلم للمصائب ، ويعيش ما عاش مهموماً مخذولا ، لا يُفيق من الصدمات ، ولا ينهض من العثرات .

هذه هى طبيعة البشر أمام النعماء والسراء ، وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر كان يؤوساً .

والرسول صلى الله عليه وسلم يرشدنا إلى أن المؤمن له من إيمانه وقاية تقيه من الوقوع فى هذا أو ذاك ، فهو صبور على النعماء والضراء ، يعلم أن كل شىء فى هذا الوجود ، مَصْدرُه رب هذا الوجود ، وأن لهذا الرب العليم الحكيم تصرفا فى كل شأن من شئونه على مقتضى علمه وحكمته ، فإن أصابه خير علم أن هذا الخير من الله ، وأن له حقوقا يجب أن يؤديها شكراً لله والتماسا لمرضاته : فى المال حقوق ، وفى الجاه حقوق ، وفى الصحة حقوق ، وفى العلم حقوق وهكذا . وبذلك يكون خيِّراً فى نعمائه ؛ وإن أصابه شر علم أن لله فى ذلك حكمة ، وأن له — إذا صبر — أجراً عظيما ، فيحتسب ما يصيبه راجيا من الله ثوابه ، ملتمسا منه المعونة عليه ، وبذلك يكون خيِّراً فى ضرائه .

هذا هو شأن المؤمن ، يعيش فى الحالين مطمئنا راضيا قرير العين ، واسع الصدر ، مستقبلا أمره كله فى ثبات وثقة وحزم ا

وقد أنبأنا الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه أن هذه

القوة والمناعة ليست لأحد إلا للمؤمن ، لأنه هو الذى يعرف أن لنعمته مصدراً فيشكر ، وأن له فى الشدائد ملجأ فيصبر ، أما غير المؤمن فهو دائماً فى اضطراب وتبلبل ، تبطره النعمة ، وتضجره النقمة ، فيعيش ما عاش بين البطر والضجر ، ولذلك كان أمر المؤمن عجباً حيث استطاع بإيمانه ويقينه أن يغلب نوازع النفس البشرية ، وأن يتسع صدره للحياة فى نعمائها وضرائها على سواء !

وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم « إن الانسانَ خُلِقَ هلوعاً ، إذا مَسَّهُ الشر جزوعاً ، وإذا مسَّهُ الخيرُ منوعاً إلا المصلين » : بيَّن الله طبيعة الانسان إزاء الشر والخير ، واستثنى المصلين ، والصلاة هى صِنوُ الايمان وعماد اليقين !

* * *

ليتنا نتدبر هذا الهدى النبوى الكريم فنتخذ منه عدة للنعماء والضراء !

ليت أهل الايمان يعرفون حق الايمان فيرَعَوْن النعمة ويؤدون واجب الشكر عليها لله الذى أنعم بها ، وفى يده وحده بقاؤها أو زوالها !

ليتهم يعلمون أن الشكر ليس مجرد ألفاظ تلوكها الألسنة ، وترددها الأفواه ، وإنما الشكر جود وبذل ، وعمل وتضحية فى سبيل الله واهب النعم !

ليت أهل الايمان يعرفون حق الايمان ، فيعتصموا بالصبر عند الملمات ، ويلجأوا إلى مفرج الكربات عند الكربات !

« يأيها الناسُ قدْ جاءكم برهانٌ من ربِّكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا بهِ فسيدخلهم فى رحمةٍ منه وفضْل ويهديهم إليْهِ صراطاً مستقيما » .

obeikandl.com

الناس أمام الأحداث والفتن

« روى الطبرانى بسنده عن أبى أُمامة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار ، فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز لا يَرْبُد ، ومنهم دون ذلك ، ومنهم من يخرج أسودَ محترقا »

* * *

لم يضمن الله لأحد فى هذه الحياة الدنيا أن تجرى أموره على نسق واحد، سداه النجاح ولحمته التوفيق ، وحواشيه السعادة والرضا والطمأنينة والأمن ، ولو شاء الله لفعل ، ولكنها الحكمة قضت أن يكون الناس بين بسط وقبض ، وعطاء ومنع ، وغنى وفقر ، وصحة وسقم ، وعز وذل ، وفراغ وشغل ، وحرب وسلام ، واجتماع وافتراق ، وحب وبغض ، وغير ذلك من أعراض ، تحقيقاً لضعفهم أمام الربوبية ، وامتحانا لهم بكلا الأمرين من نعمة ونقمة . وتمحيصا للصابرين ، وتمييزاً للمنافقين .

هذه سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم

فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم »

والفتن التي يمتحن الله بها عباده كثيرة ذات صور وألوان : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة » « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » « لتبلون في أموالكم وأنفسكم » « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات » وهكذا : فالمال فتنة ، والأولاد فتنة ، والفقر فتنة ، والصحة فتنة ، والمرض فتنة ، والجاه فتنة ، والمناصب فتنة .

والرسول صلى الله عليه وسلم يرشدنا إلى أن الناس أمام هذه الفتن ، وتلك الاختبارات الالهية أصناف :

(١) صنف قوى متين ، يتلقى مايصيبه بصدر رحب ، وقدم ثابتة ، لاتزعزعها الأهوال ولا تزلزلها الفتن ، صابرا مصابرا ذا ثقة بالله ، حتى إذا انجلت غمرته ، وانتهت محنته خرج كالذهب الإبريز أصفى مما كان وأشد جلاء لم يصبه ربَد ولا صدأ ، ولم يدركه خور ولا وهن ، فذاك قريع الزمان ، وأخو الإيمان !

(٢) وصنف يتظاهر بالقوة والثبات ، ويتحدث عن الصبر والجهاد مادام في خير وسلامة وأمن وطمأنينة ، حتى إذا طرقت الأحداث بابه ، أو أطلت عليه فتنة من الفتن رأيته تبدل شخصاً آخر : تبدلت قوته ضعفا ، وثباته تزعزعا ، وصبره المزعوم جزعا

وجهاده فرارا ونكوصا، كالمعدن المغشوش تخرجه النار أسود ممتحشا محترقا ، إن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه »

ومن عجب أن هذا الصنف من الناس لا يستحي — إذ أذن الله بالنصر للمجاهدين — أن يتمسك بأذيالهم ، ويحسب نفسه عليهم ، يريد أن يقاسمهم ثمرات نصرهم ، وفى هؤلاء يقول الله عز وجل « ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله » يعنى إذا أصيب بأذى فى سبيل الله نظر إلى ما يصيبه من هذا الأذى كأنه عذاب من الله فتحول عما كان عليه ، ونزل عن عقيدته « ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم ! أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين ، وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين »

(٣) وصنف بين هؤلاء وهؤلاء ، ليس فى قوة الأولين ولا فى انحلال الآخرين ، وأفراده متفاوتون بين هذين قربا وبعدا فمنهم من يقرب من الصنف الأول ، فترى الأحداث تبهره ولكنه يفيق سريعاً من بَهْره ، وترى الفتن تبرق له ولكنها لا تخطف بصره ، فهؤلاء أولوا بقية من خير وأثارة من بر ، إذا ذُكِّروا ذَكَروا ؛ وإذا نُبِّهوا انتبهوا ، وإذا لم يأتوا إلى الحق سابقين ، جاءوا إليه من قريب ، و « إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون »

ومنهم من يحُوم حول الصنف الآخر ، صنفِ المفتونين المتزلزلين ، وإن لم يرض عنهم ، ولم يأخذ بأسلوبهم ، وهؤلاء على خطر عظيم ، فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

* * *

هذه أصناف الناس أمام الاختبار الالهى ، بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم وضرب لها الأمثال ؛ فلينظر كلٌّ منكم أين يضع نفسه ، والسابقون السابقون أولئك المقربون » .

obeikandl.com

جريمة الانتحار

القتل أكبر الجرائم عند الله . وقد نزل فيه من الوعيد ما لم ينزل فى غيره من سائر الجرائم وحسب السفاكين للدماء بغير حق قول الله : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذابا عظيما » ، وقد كتب الله فى العهد القديم على بنى إسرائيل « أنه من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا » .

وليس من شك فى أن قتل الإنسان نفسَه نوع من قتل النفس التى حرمها الله ، وهو جدير فى العقل أن يكون أفظع أنواع القتل . ذلك أن حرص الإنسان على حياته أمر طبيعى ليس من شأنه أن تدفعه عليه عوامل الغضب والانتقام أو تُغرِيَه به دراهمُ معدودة أعدت له فى إزهاق نفس بريئة، ولكن بعض الناس قد يضعف إيمانه ، وتخور عزيمته، وتُفقد رجولته، فلا يستطيع أن يتحمل أعباء هذه الحياة، فيتملكه الجزع ، ويمتلىء قلبه باليأس ، ولا يوفق إلى فضيلة الصبر والتروّى، فتضيق عليه الأرض بما رحبت، فيعمد إلى قتل نفسه، لفقر تحكم ، أو مرض أزمن، أو زوجة خرجت عن الطاعة، أو ابنة لعب

بها الشيطان، أو تجارة أصيبت بالكساد، أو امتحان لم يصحبه فيه التوفيق . يعمد إلى نفسه لشيء من هذا فيلقى بها من شاهق جبل أو شجر أو بيت ، أو يلقى بها فى بحر خضم ، أو يشعل بها ناراً ، أو يطعن نفسه بسكين ، أو يطلق عليها رصاصة ، أو يرمى بها تحت قطار أو سيارة ، أو يتناول سماً ، أو غير ذلك، ظناً منه أو اعتقاداً انه يتخلص بقتل نفسه من الشدة التى أصابته وضعف عن مقاومتها ولكن الرسول صلوات الله وسلامه عليه يؤكد، وهو الصادق الذى لا ينطق عن الهوى ، أن من يفعل ذلك بنفسه فسيصيبه — بما قتل نفسه — عذاب أشد وقعاً وأطول أمداً ؛ فهو لم يبق على حياته ولم يتخلص من عذابه ، خسر الصفقتين وساءت عاقبته فى الحياتين : « عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « من تردى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالداً مخلدا فيها أبدا ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » .

ولو أن الناس تنبهوا إلى هذه الحياة، وعرفوا بما يرون ويسمعون من سنتها؛ لأدركوا أنها بطبيعتها ميدان يلعب فيه بالناس . الفقر والغنى والصحة والمرض ، والنجاح والسقوط ، والبغض والحب ، والربح والكساد ، والموت والحياة ، والتقدم والتأخر ، والارتفاع

والانحطاط ، وأنها لاتفاجىء الناس بشىء ليس من طبعها — لو تنبه الناس إلى هذا وعرفوه ، وعرفوا أيضاً أنه لا دوام لحال فيها : فكم من فقير أغنت ، وكم من مريض شفت ، وكم من ذليل أعزت وكم من ضيق فرّجت ، لو عرفوا هذا — وماهو عنهم ببعيد — لاستقرت عقولهم فى أدمغتهم ،وقلوبهم فى صدورهم ، والتجأوا إلى مفرّج الكروب، وتذرعوا بصبر المؤمنين وجلد الرجال،وتحملوا أعباء هذه الحياة بحلوها ومرّها ، خيرها وشرّها . ولفازوا حينئذ بوعد الله للصابرين « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » « والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

والصبر عدة الإنسان فى هذه الحياة : يتقى به شرور المصائب والكوارث كما يتقى به شرور الطغيان بالنعم ، ولا نعلم خلقاً فاضلا عنى به القرآن وأكثر من الحث عليه والاستعانة به مثل خلق الصبر فقد ذكره الله فى كتابه أكثر من سبعين مرة تنويها بشأنه وبيانا لخطره فى هذه الحياة وحاجة الناس اليه ، وأرشدنا أن النعمة تُطغى الانسان وتُخرجه عن حد الاعتدال ، فينسى الواجبات ويحتقر خلق الله ، وأن الضراء توقع الإنسان فى اليأس من روح الله ، وأنه لانجاة للإنسان فى الحالتين إلا إذا اعتصم بالصبر فقام بحق النعمة فى سرائه وسد باب الجزع على نفسه وارتقب تفريج

الله فى ضرائه « ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » .

* * *

أما بعد فعلى المسلمين إذا أرادوا لأنفسهم أبناء أشداء يحتملون الدنيا ومشاقها أن ينشئوهم على فضائل الدين عامة وأن يغرسوا فى نفوسهم فضيلة الصبر والجلد خاصة حتى لا تسقط بهم الحياة ولا يسقطوا فى الحياة ويعيشوا كراماً ويموتوا كراماً ويبعثوا يوم القيامة كراماً .

الدين حسن الخلق

« عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » وأنه سئل أىُّ المؤمنين أفضل إيمانا فقال : أحسنهم خلقا »

« وعن أسامة بن شَريك رضى الله عنه قال : شهدت الأعاريب يسألون النبي صلى الله عليه وسلم يقولون: ماخيرُ ماأعطىَ العبد ؟ قال : خلق حسن »

* * *

كان محمد صلى الله عليه وسلم هو اللبنة الأخيرة فى بناء الرسل والأنبياء ، ولم يكن هذا البناء العظيم الذى أراد الله أن يقيم للبشرية صرحه بأنبيائه خاصا بالتوحيد والعبادات ، وإنما كان أيضا للخلق الذى لاتحقق للدين إلا به ، ولا صلاح للأفراد ولا للأمم إلا عليه .

لقد دل تاريخ البشرية فى جميع مراحلها على أن السعادة مقترنة بحسن الخلق ، وأن الشقاء والضعف والذل نتيجة لضعف النفوس وانحلال الاخلاق .

وكم رأينا من أمة كثر عديدها ، وقوى عتادها ،وانبثت مصانعها ،وازدهرت تجارتها ، واتسعت آفاق حياتها ، ثم أصيبت من جانب

الخلق فصارت كأن لم تَغْنَ بالأمس .

لذلك تضافر رسل الله أجمعون على إظهار قيمة الخلق ، وبيان منزلته من الدين ، وهذا هو رسول الإسلام يقرر « أن أفضل المؤمنين إيمانا هو أحسنهم خلقا » وأن « خير ما يعطى العبد خلق حسن » وأن بعثته إنما كانت ليتم بناء « الصرح العظيم » الذى تكافل أنبياء الله ورسله على بنائه ، وهو مكارم الأخلاق ، ذلك بأنها اليَنْبوع الأول الذى يفيض منه كل معنى فى هذه الحياة ، وهى التى تغرس فى قلب المؤمن إيمانه الثابت ويقينه الذى لا يتزعزع ، فإن ذا الخلق الكريم يقول : إذا كان الله قد خلقنى وربانى ، وأنعم على ورعانى ، فما أجدره بشكرى ، وما أحقه بإيمانى وعبادتى ، وليس من مكارم الأخلاق أن أبارزه بالكفران أو بالعصيان .

والله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه العزيز « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وماملكت أيمانكم إن الله لايحب من كان مختالا فخورا الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » فيقرن الإيمان به وطلب عبادته بخصال من حسن الخلق ، ويقرن الكفر به وما أعده من العذاب المهين بخصال من سوء الخلق .

ويقول فى آية أخرى « وقضى ربك ألا تعبدوا إياه وبالوالدين إحسانا » فيذكر الاحسان إلى الوالدين وهو أبرز مظهر من مظاهر الاعتراف بالجميل إلى جانب عبادته وتوحيده ويعبر عن الامرين جميعاً بعبارة قوية مشعرة بعظمتهما وجلالهما هى قوله « وقضى ربك »

ويقص علينا وصايا الأولين بمكارم الأخلاق . وما كان يتحلى به رسل الله منها : فيذكر لقمان ووصيته « يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور. ولا تُصعّر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مَرَحا إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصِد فى مشيك واغضُض من صوتك »

ويذكر ابراهيم ، فيصفه بأنه كان « شاكراً لأنعمه » وموسى ، فيصفه بأنه « كان مخلصا » واسماعيل ، فيصفه بأنه « كان صادق الوعد » وعيسى ، فيحكى عنه تمدحه بقوله « وبَرًّا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا » ومحمداً ، فيصفه بقوله « عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » . « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » « وإنك لعلى خلق عظيم » .

هذه الأخلاق هى أساس السعادة وقوام الأفراد والأمم ، ولهذا جُعلت أساس الدين فى كل زمان ومكان ، وقرينةَ التوحيدِ والخضوع لله على لسان كل رسول . وقد سئل رسول الله : ما الدين

يارسول الله ؟ فأجاب « الدين حسن الخلق » ، وقيل له : إن فلانة تصوم نهارها وتقوم ليلها وهى سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها فقال : لا خير فيها هى من أهل النار .

فلينظر كل امرىء لنفسه ، ولتنظر كل أمة لأبنائها ، وليقيموا بناءهم على أساس صحيح إن أرادوا الحياة .

obeikandl.com

الإخلاص أساس النجاح

للإخلاص قيمته عند الله ، وآثاره فى الناس : به يتقبل الله الأعمال ، وبه ينظر إليها ويزكيها ، وهو يضفى على القلوب طمأنينة وسكينة ، ويسير بالأعمال فى طريق النجاح والإنتاج ، ويكون حصناً لصاحبه يهديه فى الظلمات ، ويأخذ بيده فى الكروب والملمات ، ويفتح أمامه مغاليق الأمور . وقد كان الإخلاص لهذا محل عناية كبيرة من الهدى النبوى الكريم .

استمعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم » فهو يرشدنا إلى أن المظاهر والعناوين التى ينخدع بها الناس ، ويجعلون لها المقام الأول فيما بينهم ، ويمنحون أصحابها ما يمنحون من ألوان الاجلال والتكريم — يرشدنا إلى أن هذه المظاهر لا وزن لها عند الله ، وإنما الوزن الحق لما تمتلىء به القلوب . من نيات صالحة ، ومقاصد شريفة ، وحب للخير ، وبغض للشر ، وأن الانسان ليس له من عمله حركاته وسكناته ، ولكن له نيته الطيبة ، ومقصده الشريف : ئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل

حَمِيَّة ، ويقاتل رياء : أىُّ ذلك يكون فى سبيل الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

وقد يكون العمل الذى يأتى به المرء مما تدعو إليه طبيعته ، أو يقضى به واجبه ، أو تدفع إليه عاطفته ، ولكن الرسول مع هذا يرشدنا إلى أن الاخلاص يجعل من هذا العمل عبادة يثاب المرء عليها ، وقربة ترتفع بها عند الله منزلته : وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أُجرْتَ عليها حتى ما تجعلُ فى فم امرأتك » .

نفقة المرأة على زوجها واجبة بحكم الشرع ، وإطعامها إلى جانب ذلك أمر محبب إلى نفسه ، ومع هذا يقرر الرسول أن ابتغاء وجه الله فى عمل ذلك الواجب المحبوب سبيل إلى الأجر والمثوبة . وأعتقد أنه لا يوجد تشريع يدفع إلى القيام بالواجب ، ويغرى به ، ويُطمِع فيه كهذا التشريع الذى يجعل من النية والقصد سبيلا إلى مضاعفة الأجر ، وحسن القبول .

سبيل الفلاح

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان ، وجعل قلبه سليما ، ولسانه صادقا ، ونفسه مطمئنة ، وخليقته مستقيمة ، وجعل أذنه مستمعة ، وعينه ناظرة ، وقلبه واعيا » .

* * *

هذا حديث جامع في معناه ، شاف في بيانه ، يرشد إلى سنة من سنن الله التي لا تتبدل ولا تتحول : هي أن سلوك الانسان في الحياة ، وصفاته الخلقية التي يتصف بها ، هما السبب فيما يصيبه من نجاح أو إخفاق ، وما يُرزَقُه من سعادة أو شقاء .

يذكر النبي صلى الله عليه وسلم الفلاح بهذه الصيغة الجازمة المؤكدة « قد أفلح » ويربطه بصفات يرشد المؤمن إلى التحلي بها ، والتخلي عن أضدادها : الإيمانِ الخالص الذي لا يعرف الشك ، ولا يفسده التردد ولا النفاق ، والذي تظهر آثاره في كل ما فعل أو ترك ، وسلامةِ القلب وطهارته ، فلا خبثَ ولا حقدَ ولا حسد ، وصدقِ اللسانِ ، فلا كذبَ إذا حدثت ، ولا إخلاف إذا وعدت ، ولا نقض إذا عاهدت ، واطمئنانِ النفس ، فلا خوف إلا من الله

ولا اضطراب أمام الأحداث ، ولا عجز ولا خَوَر ، ولكن ثبات وشجاعة وثقة وتصميم ؛ واستقامةٍ فى الخليقة، فلا التواء ولا عدول فى شىء ما عن سواء السبيل .

فإذا جمع الله لامرىء هذه الصفات ثم منحه قوة الملاحظة ، وأدوات الإدراك السليم ، والفكر الصحيح ؛ من أذن سميعة ، وعين ناظرة ، وقلب واع ؛ فقد جَمَع له أسبابَ النجاح والفلاح !

* * *

يتبين من هذا أن الإسلام لا يربط الفلاح بأنواع العبادات وأصناف القربات الروحية فحسب ، ولكنه يربطه إلى جانب ذلك بأوصاف وأسباب يتطلبها الواقع ، وتوحى بها سنة الله فى الكون، وقد شاع هذا المعنى فى الأحاديث النبوية الشريفة :

يُذكَرُ أحيانا بلفظ « الفلاح » كما هنا ، وكما فى قوله صلى الله عليه وسلم « أفلح من هدى إلى الإسلام » « أفلح من رُزِق لبًّا » « أفلح من قَنِع بما أتاه الله » .

والسنة فى هذا متآزرة مع القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون » « قد أفلح من زكاها » « إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون » « ومن يُوقَ شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون »

ويُذكَرُ أحيانا بلفظ « الرحمة » : « رحم الله امرَأً عَرَف

قدر نفسه » ، « رحم الله امرأ قال خيرا فغنم أوسكت فسلم » ، « رحم الله والدا أعان ولده على بره » ، « رحم الله عينا بكت من خشية الله وعينا سهرت فى سبيل الله » .

وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم « ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون » ، « إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله » ، « وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما » .

ويُذكر أحيانا بلفظ « طُوبَى » مثل قوله عليه الصلاة والسلام « طوبى للمخلصين » ، « طوبى للعلماء » ، « طوبى لمن ترك الجهل ، وآتى الفضل ، وعمل بالعدل » ، « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » .

وفى القرآن الكريم « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسنُ مآب » .

وهكذا إذا تتبعنا ألفاظ : رحم — وأفلح — وطوبى وأمثالها فى الكتاب والسنة ؛ وجدناها لا تعنى مجرد الثواب فى الآخرة ، ولكنها تعنى إلى جانب ذلك ، الفوزَ بما يترتب على الصفات والاعمال التى ذُكِرَتْ معها من نجاح فى الحياة ، وتوفيق فى الحصول على الغايات الشريفة ، والمنازل الرفيعة ؛ فإذا وجدنا رجلا يصلى ويصوم ويسبح ويأخذ سَمْتَ الصالحين فى زِيِّه وقوله وقيامه وقعوده ومسيره ولكنه لا يأخذ نفسه بما يربى الله به عباده ، ولا يتسلح

للحياة بالصفات الشريفة التى تتطلبها الحياة ؛ فليس عجيبا أن نراه فقيرا أو مخفقا أو مُستَضعَفا أو محتَقَرا . ذلك بأنه حفظ شيئا وغابت عنه أشياء ، والله تعالى يورث الأرض عبادَه الصالحين ، ويمنحهم النجاح والتوفيق ، لا بأنهم صوامون قوامون مسبِّحون فقط ، ولكن بأنهم مع ذلك قد اتصفوا بالصفات العملية التى حث عليها وأمر بها ، تلك الصفات التى حرص عليها المسلمون زمنا فنجحوا ، وأهملوها أزمانا ففشلوا وذهبت ريحهم : « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » « والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس » « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » « وإذا مروا باللغو مروا كراما » و « إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » « والذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القَرْح » « فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعُفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين » .

أولئك هم الصالحون للحياة ، المفلحون فى الدنيا وفى يوم الدين

هجرة القلوب

« عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

* * *

كانت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من مكة إلى المدينة حادثاً عظيما فى الاسلام ، شاء الله أن يكون مَوْطناً لكثير من من العبر ، ومثاراً لكثير من الذكريات الغالية التى تحرص عليها الأمم القوية العزيزة الراغبة فى النجاح والسعادة :

قوم مؤمنون بدينهم ، مطمئنون إلى عقيدتهم ، يَدعون إلى الحق ، ويعلنون كلمة الله إلى الناس ، صادعين بها ، صابرين على الأذى فى سبيلها ، فيخرجهم المبطلون من ديارهم وأهليهم وأموالهم إلى ديار ليس لهم فيها أهل ولا مال ولا مُرتزَق ، ليشردوا يموتوا وتموت دعوتهم ، ولكنهم لا يبتئسون ولا يحزنون ولا

يفل ذلك من عزائمهم ، ولا يثنيهم عن إيمانهم ، ولا يزلزل من عقائدهم !

وقوم آخرون يستقبلونهم فرحين مكبرين مهللين ، يقاسمونهم بيوتهم وأموالهم ، ويتخذونهم إخواناً لهم ، يؤثرونهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ويتعهدون معهم دعوتهم حريصين على نجاحها ، مجاهدين بالأرواح والأموال فى سبيلها ، ذائقين حلوَها ومرَّها ، لابسين نعماها وبؤساها ، يقول قائلهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم « والله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك » فيظهر الله بهؤلاء وهؤلاء دينه ، ويعلى كلمته ، حتى يعم نور الاسلام جميع الأرجاء والأنحاء « والله متم نوره ولو كره الكافرون »

أية عبر أبلغ من هذه العبر ؟ وأيةَ ذكريات أمجد من تلك الذكريات ؟ : فيها إيمان بالحق عن يقين واقتناع . فيها الثبات على المبدأ . فيها التضحية . فيها الزهد فى المال والأهل والسكن والمتاع والتجارة والمنافع إذا وزنت بالفكرة والعقيدة . فيها الرحلة فى سبيل الخير وارتياد الأرض الصالحة للبذور الطيبة . فيها سلوى المصلحين . فيها دليل عملى على أن الحق لا يعدم أنصاراً . ولا يُغمَط فى كل مكان . فيها دليل على أن العاقبة للمتقين ، والنصر للصابرين !

تلك عبر الهجرة ، وهذه ذكرياتها ، ولئن كانت الهجرة قد فاز

بها الأولون، ولم يعد بعد الفتح هجرة للآخرين ؛ إن لنا لنوعاً آخر من الهجرة لم يُغلق بابه ، ولم يمضِ أوانه ، وهو أساس هذه الهجرة وروحها : ذلكم هو « هجرة القلوب » من الباطل إلى الحق ، ومن الرذيلة إلى الفضيلة ، ومن الفساد إلى الصلاح ، ومن الشر إلى الخير وفى هذا المعنى يقول الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه « المهاجر من هجر مانهى الله عنه » .

إن الاسلام دين القلوب والنوايا الصالحة ، لا دين المظاهر الكاذبة ، والعناوين الخادعة ، والأقوال البراقة ، ولولا أن هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة كانت مبنية على أساس وطيد من « هجرة القلوب » وصادرة عن أعماق النفوس ، ومقصوداً بها وجه الله ومرضاة الله ؛ لما كانت شيئاً مذكوراً ، ولما نظر الله إليها . ولما أنجح أصحابها ، وقد حدثنا الرواة عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كان فينا رجل خطب امرأة يقال لها « أم قيس » فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر ، فهاجر فتزوجها ، فكنا نسميه « مهاجرَ أمِّ قيس » . سَمَوْهُ بهذا الاسم استهزاء به ، وانتقاداً لما فعل ، لأن الروح العامة فيهم كانت هى ابتغاءَ مرضاة الله تعالى !

وإن بيننا الآن لكثيراً من الناس يشبهون « مهاجر أم قيس » : يصلون كثيراً ، ويصومون كثيراً ، ويزكون ويتصدقون ، ويعملون الصالحات ، ويكتبون ويخطبون ويتحمسون ، ولكنهم إنما يفعلون

مايفعلون ليظهروا أمام الناس بمظهر المؤمنين العاملين ، أو ليقول الناس عنهم أنهم جرآء مصلحون ، أو ليبتغوا بذلك زلفى وقربى عند رئيس أو عظيم .

فلمثل هؤلاء يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى ، فمن كان الله قصده فله ماقصد ، ومن كان الناس قصده فله ما قصد ، ومن كانت الدنيا قصده فله ما قصد ، وإن الرجل ليأتى يوم القيامة وقد عمل أعمالا فتُلف ويُرمَى بها فى وجهه ، ويقال له : إنما عملت ليقول الناس : عَمِل ، وقد قال الناس ، واستوفيت بقولهم جزاءك الذى أردت ! ويومئذ يكون شأنه كشأن الذين قال الله فيهم « وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً » .

هذه هى هجرة القلوب ، وهذا هو شأن المؤمنين « وما أُمِروا إلا ليعبُدوا الله مخلصينَ له الدينَ حنفاءَ ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دينُ القيِّمَه » .

الإخلاص يفرج الأزمات

الاخلاص شأن يُسْلِم به المرء نفسه لله ، فلا يعتمد إلاّ عليه ، ولا يتجه إلاّ اليه ، هو مفزعه فى الملمات ، هو صمده فى قَضاء الحاجات .

يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل ، فسدّت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا يُنْجِيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم : لجئوا إلى الله ، لا بانطلاق الألسنة بألفاظ الدعاء ، ولا بمجرد الطمع فى عفو الله ومعونته كما يفعل كثير من الناس ، ولكن لجئوا اليه بصالح العمل الذى تجردت فيه النية لله وحده .

قال رجل منهم : اللهم كان لى والدان شيخان كبيران وكنتُ لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا — يعنى لا أسقى قبلهما فى العشىّ أحدا — فنَأى بى طلبُ الشجر يوما — يريد أنّ جمع الحَطب أخّره عن موعده — فلم أرُحْ عليهما حتى ناما فحلبت لهما غَبُوقهما فوجدتهما نائمين فكرِهت أن أُوقظهما ، وأن أَغبُقَ قبلهما أهلا أو مالا ،

فابثت والقدح على يدى أنتظر حتى بَرَقَ الفجـــر ، والصبيةُ يَتَضاغَوْن عند قدمى — أى يتصايحون من الجوع — فاستيقظا فشربا غَبُوقهما ! اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا مانحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه.

قال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنةُ عم كانت أحبَّ الناس إلىّ فأردتها على نفسها فامتنعت منى، حتى ألَمَّتْ بها سَنة من السنين — يريد أصابتها شدة وفقر — فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تُخلى بينى وبين نفسها، ففعلَتْ، حتى إذا قدرت عليها قالت : اتق الله ، فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلىّ ، وتركت الذهب الذى أعطيتُـها! اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا مانحن فيه ، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

وقال الثالث : اللهم استأجرتُ أُجراء ، وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب ، فثمَّرت أجرَه — يريد نميته بتجارة ونحوها — حتى كثرت منه الأموال فجاءنى بعد حين فقال ياعبد الله : أدِّ إلىّ أجرى فقلت : كلُّ ماترى من أجرك ، من الأبل والبقر والغنم والرقيق ! فقال ياعبد الله لاتستهزئْ بى . فقلت : لا أستهزئُ بك، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا . اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا مانحن فيه ، فانفرجت الصخرة وخرجوا يمشون ، . . . وهكذا يفعل الاخلاص !

هكذا كان الناس

« عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اشترى رجل من رجل عقاراً له ، فوجد الرجل الذى اشترى العقار فى عقاره جرَّة فيها ذهب ، فقال الذى اشترى العقار: خذ ذهبك منى، إنما اشتريت منك الأرض ولم أبتع منك الذهب ، وقال الذى له الأرض : إنما بعتك الأرض وما فيها ، فتحاكما إلى رجل ، فقال الذى تحاكما إليه : ألكما ولد؟ فقال أحدهما : لى غلام ، وقال الآخر : لى جارية . قال : أنكحوا الغلام الجارية وأنفقوا على أنفسهما منه وتصدقا » .

* * *

هذا حديث يجدر بنا أن نتدبره ، وأن نستخلص منه عبرة عظمى ، بالموازنة بين معاملة الناس الآن بعضهم لبعض ، وما كان عليه أمرهم من قبل :

هذان رجلان تبايعا واتفقا وقبض المشترى عقاره ، وقبض البائع ثمنه ، وانتهى الأمر بينهما كما ينتهى بين كل متبايعين ، ولكن المشترى اطلع على جرة مملوءة بالذهب فى العقار الذى اشتراه ، رآها وحده خالياً ليس معه صاحبه ولا أحد من الناس ، وللذهب إغراء

وسحر وفتنة ، فهل قال الرجل لنفسه : هذا حظى صادفنى فى عقار اشتريته بمالى ، لم أظلم فيه أحداً ، ولم أغتصبه من أحد ، فهو حلال لى ؟ لا . لم يقل ذلك ، ولم يعتبر الذهب حقاً له مباحاً ، ولكنه اعتبره حقاً لصاحبه البائع وقال لنفسه : إن صاحبى لم يقصد أن يبيع لى هذا الذهب ضمن العقار، ولو كان يعلمه لما باعنى إياه ، وقام من فوره إلى صاحبه ، فأخبره الخبر ، وقدم إليه ذهبه الذى وجده ؛ ولكن صاحبه لم يقبل ذلك منه ، ورده عليه قائلا : إننى بعتك الارض وما فيها ، فخذه فهو حقك ، وهكذا ظل الذهب بينهما متدافعاً ، كلاهما يرده عن نفسه ، ويدفعه لصاحبه ، حتى تحاكما إلى رجل من الناس ، وكل منهما فى هذا التحاكم يقصد إلى مصلحة صاحبه ، ويطلب من القاضى أن يبعد عنه هذا الذهب الذى لا حق له فيه . فقضى بينهما هذا القضاء الموفق ، بتزويج ابن أحدهما من ابنة الآخر وأن ينتفعا بالمال على هذا النحو مع التصدق ببعضه على الفقراء والمساكين ليبارك الله فيه .

أخلاق شريفة ، ونفوس طيبة ، دفعت إلى هذا العمل النبيل : أما المشترى فقد دفعته أمانته إلى أن يُبرز ما وجد مع أنه سر لم يطلع عليه أحد ، وهو آمنٌ من أن يُطالبَ به . أو يُسألَ عنه ، ودعته عفته إلى أن يعطى الذهب لصاحبه ، مصرحاً له بأنه لا يرى لنفسه حقاً فيه ؛ وأما البائع فقد حمله خلق الوفاء واحترام التعاقد

وخلق السماحة ؛ على أن يرفض أخذ هذ الذهب ، ويقول لصاحبه : بل هو حقك أنت فاحتفظ به لنفسك !

هذه هى القصة التى صور لنا بها الحديث الشريف : كيف كان الناس يتعاملون ، حين كانت النفوس طيبة ، والقلوب متحابة ، والسماحة هى الروحَ المسيطرَ على المجتمع ، فأين نحن فى معاملاتنا من هذه الصورة الرائعة ؟

سلوا المحاكم عن القضايا المعقدة والوقائع الملفقة ، وشهودِ الزور الذين يتبادلهم الخصوم ، ويستعينون بهم على تضليل القضاء واغتصاب الحقوق وأكل الأموال بالباطل .

إن التعامل الآن ليس مبنياً على التناصح والتبادل بالمعروف ، ولكنه مبنى على المخادعة والمغالبة ومحاولة كل طرف أن ينتزع من الطرف الآخر أقصى ما يمكنه انتزاعه بالحق أو بالباطل ، وقد ابتكر الناس ألواناً من وسائل المغالبة والمخادعة واستلاب الحقوق : فى العقود التى يعقدونها ، وفى الشروط التى يشترطونها ، وفى العبارات التى يؤوّلونها ، حتى ضاعت الثقة ، وفقدت الأمانة ، ونظر كل متعامل إلى من يعامله ، كأنه لصٌّ يخاتله ، ويتحيَّن غفلة لاختلاس ماله .

وكم رأينا من خصومات بين الأفراد والأسر يطول بها المدى ، فيها الجهود الطائلة ، والأموال الكثيرة ، ويشتغل بها

القضاة والمحامون ، ويتوارثها الأبناء عن الآباء ، والأحفاد عن الأجداد ، وإنما مبعثها الطمع والجشعُ ، والحرص على استلاب الحقوق، وفقدان روح التسامح والتعاطف بين الناس ، حتى كثر الفساد ، وبغى العباد ، ولو أنصف الناس من أنفسهم ، لاستراحوا وأراحوا وباتوا عن أنفسهم وإخوانهم راضين ، ولوفروا جهودهم وأموالهم لما هو أولى بها من العمل المثمر والانتاج المفيد .

« ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »

الجهاد الأكبر

« روى البيهقي بسنده : أن قوماً قدموا من الجهاد ، فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم : مرحباً بكم ، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . قيل : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ قال : جهاد النفس » .

* * *

في نفس كل امرىء داعيان : داع يذكّره بالله ، ويدعوه إلى الخير والهدى ، ويبصّره بالحق والصواب ، وداع يدعوه إلى الهوى والشهوات ، ويزين له طريق الغواية والفساد ، ويصده عن ذكر الله وعن كل معنى شريف فيه كلفة عليه أو تضحية منه . تلك هي طبيعة الإنسان وفطرته التي فطر عليها ، وفي ذلك يقول الله عز وجل « وهديناه النجدين » ، « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » .

وبين الداعيين دائماً حرب عوان ، والمرء منهما في جهاد وجلاد ، فإذا انتصرت قوة الخير والحق ، وأجابت النفس داعيه ؛ كان الإنسان فاضلا خيّراً يحبه الله ويرضى عنه الناس ، يرضى هو عن نفسه ، ويشعر بلذة دائمة لا تشوبها شائبة ، ولا يعرها مكدر ، وينام ملء عينه هادئاً مستريحاً ، ويزاول جميع

أعماله مغتبطاً فى إقبال ونشاط ، ويتقى كثيراً من الهواجس التى تثير الهموم وتبعث الأحزان . أما إذا انتصرت قوة الشر ، وأنصت الإنسان إلى داعى شهوته ، ومال إلى هواه ، فإنه حينئذ يكون قد هزم فى هذا الجهاد هزيمة منكرة ، فيصبح شريراً يرتكب كل شىء ، ولا يتورع عن شىء ، ويظل الناس منه فى بلاء وعناء ، ويظل هو منهم فى كرب وشقاء فيقضى حياته مهموماً منكوداً مَريباً ، يتحاماه القريب والبعيد ، ويمقته الصغير والكبير !

هذا هو الجهاد الذى وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه الجهاد الأكبر ، وأعلمنا أنه أشد وأكبر هولا من جهاد الطعن والنزال ، والموت والقتال ، وإنما كان هذا الجهاد أكبر الجهادين لأنه هو الجهاد الدائم فى كل زمان ومكان ، وهو فرض عين على كل إنسان ، ولأن الرباط والمثابرة فيه أشق وألزم ، ولأن ثمرات النصر فيه أغلى وأكرم !

وسلاح هذا الجهاد هو مايسمى فى لسان أهل الشرع « بالمراقبة » أو « خوف الله » أو « وازع القلب » وقد يسميه بعض الناس « بالضمير » وإليه يشير قوله تعالى « إنَّ اللهَ كانَ عليكم رَقيباً » « ألم يَعلم بأنَّ اللهَ يَرى » « أفمن هو قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كسبت » وأمثال هذه الآيات . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

هذا هو سلاح الدين فى جهاد النفس ، وهو سلاح قوى ماض لا تعرف البشرية سلاحاً أقوى منه ، ولا أمضى ، فى محاربة أسباب الفساد ، ومدافعة عوامل الشر والسوء .

إن للقانون لأثراً ، وإن للسلطان لهيبة ، ولكن القانون قد يَغفُل ، وقد يُخدع ، وقد يُستخفى منه ، وقد يؤوَّل ، وقد يحول حائل دون تطبيقه وتنفيذ حكمه ، أما وازع القلب ، أما ضمير الرجل المتدين الذى يعرف ربه ، ويخاف ذنبه ، ويؤمن بالعدل والجزاء ؛ فهو رقيب لا يغيب ، ولا يخادَع ، ولا تجدى عنده التأوُّلات ولا المعاذير ، وفى ذلك يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « البر ما سكنت إليه النفس ، واطمأن له القلب ، والإثم ما جال فى الصدر ، وخفت أن يطلع عليه الناس » و « استفت قلبك وإن أفتاك المفتون » .

فاغرسوا — أيها الناس — بذور التربية الدينية فى النفوس ؛ تنبت لكم ثماراً دانية القطوف ، وكوِّنوا خلقَ المراقبة وجهاد النفس فى كل قلب ، فذلك أجدى وأنجع ، وأهدى إلى سبيل الرشاد .

وجهاد النفس له صور وألوان ، وله ميادين يجب على من أقامه الله فى واحد منها ، أن يثبت فيه ، ويصبر على غمراته : فإذا كنت تاجراً فأنت مطالب بأن تجاهد فى نفسك نزعة الجشع والطمع والغش والاستغلال ، وإذا كنت موظفاً فأنت مطالب

بأن تجاهد فى نفسك نزعة الرغبة فى الكسل والإهمال وتراكم الأعمال والاستهانة بمصالح الناس ، وإذا كنت رئيساً فعليك أن تقاوم نزعة الظلم والاستئثار والتكبر على النصح وحب الانتقام ، وإذا كنت مرءوساً فعليك أن تجاهد فى نفسك نزعة النفاق والملق والدس والوقيعة ، وإذا آتاك الله مالا ، وخوّلك نعمة ، فقاوم فى نفسك البخل والإمساك عن المعروف ، وقاوم فى نفسك الاسراف والترف ، والبطر والأشر ، والجحود والكفران ، وإذا كنت فقيراً فقاوم اليأس والعجز والاستكانة ، واعمل ، وتجمّلْ ، واحتل للنجاح ، فإن الله لا يضيع أجر العاملين .

وهكذا : للأزواج جهاد ، وللزوجات جهاد ، وللآباء جهاد ، وللأبناء جهاد ، ولكل امرىء جهاد .

رموز السعادة

من حسن الطالع لهذه الاذاعة الجديدة أن يقع فى أول أسبوع لها عيـــدان عظيمان (*)، يرتبط بأولهما فى نفوس المصريين بشرى مجيدة عقدوا عليها الآمال فى سعادتهم، وهو عيد الميلاد لجلالة الملك «فاروق»، ويرتبط بثانيهما فى نفوس المسلمين، بل فى نفوس الناس أجمعين، ذكرى البشرى الالهية بانقاذ البشرية من وهدة الجهل والشرك، والظلم والطغيان، الى نور العلم والايمان، والعدل والمساواة، وهو عيد الميلاد النبى محمد صلى الله عليه وسلم، متبع هذه الاذاعة الكريمة.

* * *

حسب المرء فى سعادته التى لا يشوب صفوَها كدَر ولا لذتَها ألم، أن يكون فى كنف الله وحياطته حيث لا ناصر له سواه ولا معين، وقد بين لنا الرسول الكريم أن سبيل ذلك يرجع إلى فضائل:

الاولى: النظر فى مصالح المسلمين بما يرفع شأنهم، ويركّز الحقوق بينهم، ويُطمئن الضعيفَ على حقه، ويحد من طغيان القوى فى ظلمه.

(*) كان هذا الحديث من أوائل الأحاديث التى أذيعت، وقد أذيع فى أحد أيام بوع الثانى من شهر ربيع الأول سنة ١٣٦٥ هـ، وفيه اجتمع عيدان: عيد ميلاد جلالة المعظم «١١ فبراير ١٩٤٦» وعيد الميلاد النبـــوى فى الثانى عشر من ربيع الاول «١٤ فبراير سنة ١٩٤٦».

الثانية : مراقبه الله فى السر والجهر من شاب امتلأ فتوّة ونشاطا ، وتمكن من زخارف الدنيا فلم يُسلم نفسه إليها ، بل وقف عند حدود مولاه .

الثالثة : استحضار عظمة الله ، وقوة سلطانه ، وعموم رحمته على عباده ، من رجل ذَكَرَ الله فيما بينه وبين نفسه ففاضت عيناه بالدموع طمعا فى ثوابه ، ورهبة من عذابه .

الرابعة : التجافى عن الركون إلى الدنيا ، والتعلقُ بأماكن العبادة التى تجمع بينه وبين إخوانه المؤمنين ، فتقوى وحدتهم ، وتلتئم كلمتهم .

الخامسة : التعاون على البر والتقوى فى السراء والضراء ، والسر والعلن ، لله وفى الله .

السادسة : عصيان دواعى الهوى والشر ، وقد كثرت منه المغريات من جمال وحب ومال .

السابعة : التماس رضا الله وحده فى إغاثة الملهوف ، وإعانة المحتاج

هذه الفضائل السبع هى رموز السعادة الخالدة عند الرسول ، وقد ساقها مُثُلا عالية للسعداء :

قال صلى الله عليه وسلم : « سبعة يُظِلُّهم الله يوم القيامة فى ظله يومَ لاظلَّ إلا ظلُّه : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل ذكر الله فى خلوةٍ ففاضت عيناه ، ورجل قلبه معلَّق

بالمساجد ، ورجلان تحابّا فى الله ،اجتمعا عليه وتفرقا عليه ،ورجل دعته إمرأة ذاتُ منصبٍ وجمالٍ إلى نفسها فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلمُ شمالُه ما صنعَتْ يمينُـه ».

فاللهم اجعلنا من السعداء الذين تَـظلّهم فى ظلك يوم لا ظل إلا ظلك !

obeikandl.com

بادروا بالأعمال الصالحة

« روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بادروا بالأعمال الصالحة فستكون فتن كقطع الليل المظلم : يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا ، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا : يبيع دينه بعَرض من الدنيا » .

« وعنه رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله . أيُّ الصدقة أعظم أجرا ؟ قال : أنْ تَصدّق وأنت صحيح شحيح ، تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تُمهِّلَ حتى إذا بلغَت الحلقومَ قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان »

* * *

كثير من الناس يحمل بين جوانحه نفسا خيِّرة ، وقلبا طاهرا يؤثر البر ، ويحب الخير ، ويركن إلى المعروف في شئون دينه ودنياه ، ولكنه مبتلى بالتسويف والإهمال ، وتأجيل عمل الخير من يوم إلى يوم ، لاينتهز الفرص ، وليس عنده خلق المبادرة والاسراع . تجلس إلى هذا الصنف من الناس ، فتسمعه يُفيض في وصف أنواع من الأعمال ينتويها ، وألوان من المشروعات يرسمها ، فيعجبك حديثه ، وتروقك مشروعاته ، وتلمع أمامك آماله ، وتلمس فيه

الصدق والرغبة ، ولا يساورك فيه ظل من الشك ، ولكن الأيام تمضى ، والشهور تتوالى ، والأعوام تكر ، وهو كما هو ، ومشروعاته مازالت أحلاما لم تحقق ، ذلك بأنه — وإن كان ذا نية حسنة ، وآمال طيبة — قد فقد خلق الاقدام ، ولم يُؤْتَ حظا كافيا من التصميم !

لمثل هؤلاء المترددين المتلكئين يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : بادروا بالأعمال الصالحة ، وانتهزوا الفرص قبل أن تفوتكم واحذروا الفتن قبل أن تعوقكم ، فكم من عمل صالح فى شئون الدين أو الدنيا وُضعت خطته ورسمت طريقته ، ثم أدركه داء التأجيل والتسويف ، فعدت عليه الفتن الجامحة ، والفتن من شأنها أن تعصف بكل عمل صالح ، فربما قلبت إيمان المؤمن ، وأوهنت عزيمة المصمم ، وبدلت الحق باطلا ، والباطل حقا ، وحملت صاحب الدين والفكرة والمبدأ على أن يبيعها ويتخلى عنها بعرض من أعراض هذه الحياة .

وليست الأعمال الصالحة هى الصلاة أو الصوم أو العبادة فقط ، وإنما هى كثيرة : إنصافك المظلوم عمل صالح فبادره قبل أن يفوتك . إغاثتك الملهوف عمل صالح فبادره قبل أن يفوتك ، إحسانك إلى الفقير عمل صالح فبادره قبل أن يفوتك . تربيتك لأبنائك وبناتك عمل صالح فبادره قبل أن يفوتك . تدبيرك لشئون بيتك وأهلك وزوجك عمل صالح فبادره قبل أن يفوتك . فصلك فى القضايا إن كنت قاضيا ، بتّك فى الشكاوى إن كنت

رئيسا . إنجازك للأعمال إن كنت موظفا . قيامك بالواجب عليك فى كل ناحية من نواحى حياتك ؛ كل أولئك أعمال صالحة فبادرها قبل أن تفوتك

* * *

هنالك طائفة أخرى من الناس تختلف بعض الشىء عن هذه الطائفة الأولى ، فهى لاتحمل هذه النفس البارة ، ولا هذا القلب الطاهر ، ولـكنها نفوس ذات أثرة وأنانية : يعيش المرء منهم غنيا والناس من حوله فقراء ، مُتْرَفا والناس من حوله أشقياء ، فلا تتحرك فيه نخوة ، ولا يهتز قلبه برحمة ، وكأنه فى هذا العالم غريب عن أهله لاشأن لهم به ، حتى إذا دبتْ إليه عوامل الفناء وشعَر بأنه قد قارب الأجل ، وسيفارق حياته وماله ومتاعه ، تراه حينئذ — حينئذ فقط — يذكر ما كان ناسيا ، ويظهر ما كان خافيا . ويقول : تبرعت لفلان بكذا ، ووهبت الجمعية الفلانية كذا ، وقد كان لفلان علىّ دين فادفعوه ، وقد كنت ظلمت فلانا فأرضوه ، وهكذا يتصرف تصرف المحسنين ، ولـكن فى أموال الوارثين ! فأين هذا ممن يبذل المال على حبه وهو عليه حريص ، وفى صحته وهو بها ذو أمل واقتدار ؟

ألا إن الاحسان لجميل ، ولـكن أجمل منه أن تبادر به قبل فوات الأوان ، فتضعه فى موضعه ولو تحملت فى سبيله العناء !

فيأيها المترددون . ويأيها الآثرون :

استبقوا الخيرات ، « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض» «وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموتُ فيقولَ رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدقَ وأكُنْ من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون » .

المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف

« عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كلٍّ خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أنى فعلتُ كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدَّر الله وما شاء فعل ، فإن « لو » تفتح عمل الشيطان » .

* * *

رجل مؤمن ، طيب القلب ، نقى السريرة ، يعبد ربه ، ويحافظ على دينه ، ويمقت الفساد والمفسدين ، ويحب الصلاح والمصلحين ، ولكنَّ به إلى جانب ذلك ضعفاً فى نفسه ، وتخاذلا فى شخصيته ، وقصورا طبيعياً من شأنه أن يزحزحه عن الصف الأول بين صفوف المؤمنين .

تبدو مظاهر هذا الضعف وأماراته فى أحوال هذا الرجل وأعماله : تراه أمام الأحداث خائر القوة رعديداً ، يفر من أول جولة ، ويجزع لأيسر نكبة ، وإذا أحس بأنه مقبل على عمل ذى متاعب أو صعاب ؛ هابه هيبة تفسد عليه أمره ، وتزيد متاعبه وصعابه ، ليس له فى الحياة خطة مرسومة ولا قصد محدَّد ، فهو يُفاجأ بكل شيء ، ويرتجل فى كل شيء ، ويخطيء أو يصيب اعن

طريق المصادفات، فإذا أخفق وفشل ؛حمل من هذا الإخفاق أعباء فوق أعبائه ، وآلاماً لا يزال ينمّيها ويربيها ، ويشكو منها ، ويتبرم بها ، ويجعلها أمامه دائماً ، وفي ذاكرته أبداً ، فإذا هو مرتبك الفكر ، فاتر العقل ، مستطار اللب .

وإنك لتراه في بيته ، أو في عمله ، أو بين أصحابه ، فترى رجلا لا هيبة له إذا قدم ، ولا افتقاد له إذا غاب ، ولا وزن لرأيه ، ولا اعتداد بما يقول .

مثل هذا الرجل لا يصلح لهذه الحياة العاملة الناصبة ، وهو وإن كان قد قال كلمة الإيمان ، واطمأن إليها قلبه ؛ لكن الإيمان لم يرد منه على نفس قوية ، وقلب شجاع ، فلا ينتظر منه أن يكون ذا أثر عملي في نصرة الدين ، وتأييد الحق ، ومكافحة المبطلين ، ولذلك يعده رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤمناً ضعيفاً ، ليس هو المفضل ولا الأحب إلى الله ، ولا يخليه مع ذلك من الخير لإيمانه ، وطيب قلبه ، ونيته الباطنة في حب الخير والصلاح ، ومقت الشر والفساد !

إنما يريد الله من المؤمن أن يكون قوياً ذا أثر ظاهر في الناس : فإن كان عالماً لم يرض منه الاكتفاء بظاهر العلم ، وأيسر الاطلاع والنقل ، وإنما يريده باحثاً متعمقاً منقباً صبوراً على الجهاد في سبيل الحق ، وإن كان تاجراً لم يرض منه أن يكتفي بالجلوس في

متجره خاملا ساهياً غافلا ، ضعيف الملاحظة ، بطيء التصرف ، وإنما يريده عاملا ناشطاً جريئاً ، وإن كان زارعاً لم يرض منه إلا أن يكون ساهراً دائب العمل موفور الإنتاج ، وإن كان طبيباً لم يرض منه إلا أن يكون دقيقاً حاذقاً ، وإن كان قاضياً لم يرض إلا أن يكون متيقظاً واعياً ، وإن كان موظفاً لم يرض منه أن يكون ذيلا وتابعاً وظلا لسواه ، وإنما يريده قوياً فى عمله ، مبتكراً منتجاً .

وهكذا يريد الله أن يكون المؤمن قوياً فى جميع حالاته : فى نفسه ، فى عمله ، فى فكرته ، فى مبدئه ، فى صداقته ، فى بيته ، فى شئون أهله وأبنائه ، فيما ينزل به من أحداث ، فيما يتطلع إليه من آمال !

وقد هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما يكون به المرء مؤمناً قوياً :

فهو يقول : « احرص على ما ينفعك » فيذكر كلمة « الحرص » وهى تستلزم القوة فى التناول والمعالجة ، وتستلزم الدرس والنظر لمعرفة ما ينفع والإيمان بقيمته وفائدته ، فإن من عرف أراد ، ومن أراد صمم ، ومن صمم نفذ ، وفى قوله « ما ينفعك » عموم يشمل كل نافع من شئون الدين والدنيا والوطن .

ويقول : « واستعن بالله ولا تعجز » وفى ذلك أمر ونهى يحتاج العامل إلى كليهما ، ولا يستغنى عن أحدهما : هو فى حاجة

إلى الاستعانة بربه ليقوى بذلك قلبه ، ويَشرَحَ صدرُه ، ويمضى فى عمله بروح وثابة غلابة ، وهو فى حاجة إلى أن يطرد عن نفسه عوامل العجز ، وما يؤدى إليه الخضوع والاستكانة والتسليم أمام الصعاب والعقبات ، فإن الاستكانة لعوامل العجز مهلكة ، وأن الضعف أمام الصعاب تقوية للصعاب !

ويقول : « وإن أصابك شىء فلا تقل : لو أنى فعلت كان كذا وكذا » ، فيرشد إلى إغلاق الباب دون الأمانى الفائتة ، فهى بضاعة الحمق ، ومَشْغلة الضعفاء الذين يأسَوْن على ما فاتهم ، ويكررون ألفاظ « لو » و « وليت » و « لولا » من كل ما يثير الوساوس ، ويبعث الأحزان ، ويفتح عمل الشيطان .

وحسب المؤمن القوى أن يقول فيما فات : هذا ما قدره ربى وما شاء ربى فعل ، فيحسم بهذا آثار الفشل ، ويسحب عليها ذيول النسيان ، ويستأنف ما يأتى من أمره قوياً طامحاً يعرف طريقه إلى النجاح .

الرسول يحث على الزواج

« روى أن جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه
جاءوا إلى بيوت أزواجه يسألون عن عبادته ، فلما أخبروا بها
تَقَالُّوها ، أى عدّوها قليلة . فقالوا : وأين نحن من
الله ؟ قد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وماتأخر . فقال أحدهم
أنا فأصلى الليل أبدا ، وقال آخر : وأنا أصوم الدهر أبدا ،
ثالث : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا . فجاء رسول الله ص
عليه وسلم فقال لهم : أنتم القوم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أمَ
إنى لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر ، و
وأرقد ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

* * *

هذه مكانة الزواج فى الدين : يعلن رسول الله صلى الله
وسلم أن الزواج سنته وطريقته وشرعته ، وليس المراد أنه س
شاء فعلها ومن شاء تركها ، وإنما هو واجب لا يجوز النكوص
ولا التخلى عن حمل مسئوليته ، فمن تخلى عنه فليس من الرسول ،
بينه وبين الرسول صلة .

هذا قول الرسول فى شأن قوم تركوا الزواج اشتغالا ب

والصلاة وعبادة الله ، فما بالكم بقوم يعرضون عن الزواج لا إيثاراً للعبادة ، ولا تفرُّغاً للزهد والتقوى ، وإنما يُعرضون عنه اكتفاء بانتهاك الحرمات ، أو تهرباً من حمل المسئوليات . يقولون: ما لنا وللزواج وقليلٌ من المال يُغنى الحال ويسد الحاجه ؟ ما لنا ولهذا الحمل الثقيل : زوجة وبنون وبنات وخدم . والكل لهم مطالب فى الصحة والمرض ! خَوَرٌ فى العزيمة ، وضعف عن تحمل المسئوليات الشريفة ، وفقدٌ للصفات الكريمة التى مُيِّز بها الانسان ورضىً بالمنزلة الدون ، وبالتحلُّل من قيود الشرف والكرامة ، وانغماسٌ فى حمأة الرذيلة والفجور .

إن الزواج تعاون شريف على هـــذه الحياة ، وقيام شريف بحقوقها ، وتحمل شريف لمسئولياتها ، به تُحفظ الكرامات ، وبه تُحفظ الأموال ، وبه تكون الوقاية من المقت وسوء السبيل ، به تتبادلون المنافع ، به توجد لكم ذريةٌ طيبة صالحة تكون لكم عزاً فى الحياة وذكراً بعد الممات ، به يجد الإنسان بجواره القريب ، القلبَ الذى يحنو عليه ، والنفس التى تخلص له ، والسلوى التى تنفس عنه ، به ترتبط الأسر ، وتتآلف العائلات ، وتكون الأمة وحدة قوية البنيان ، شديدة التماسك ، تشعر برباط الإيمان الخالد ، يعززه رباط الزواج والمصاهرة .

إن إعراض الشباب عن الزواج قد أفسد الأخلاق ، ودفع إلى

التحلل من قيود الشرف والدين ، وسهّل طرق العبث بالأعراض، وخدش الكرامات : كرامات الأسر . كرامات الآباء والأمهات، كرامات الدين ، كرامات الوطن !

إن الاعراض عن الزواج هو استجابة لفكرة شيطانية خبيثة ، ونزول على أسباب ومبررات كاذبة فاسدة تنتحلها الثقافات الأباحية الوافدة إلينا ، التى انزلقت إليها أقدام شبابنا تقليداً لقوم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، أما سنّة الرسول فقد بينها الرسول بقوله وفعله « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا »

تخيير الزوجات والقصد في المهور

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «خير النساء أحسنهن وجوهاً وأرخصهن مهوراً».

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من بركة المرأة سرعة تزويجها ، وسرعة رحمها» يريد الولادة «ويُسْرُ مهرها».

وفي حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تُتزوَّج المرأة لجمالها، فلعل جمالها يُرْدِيها، ولا لمالها ، فلعل مالها يُطغيها، وإنما تتزوَّج المرأة لدينها».

* * *

أحاديث شريفة تذكر للمؤمنين هدياً من هدى رسولهم الكريم في شئون الأسرة ، تبسط به السعادة أجنحتها على الزوجين ، وتملأ بيتهما غبطة وهناءة وتيسيراً .

كثير من الناس ينظر إلى الزواج كأنه شركة مالية ،وغرض من أغراض الكسب والانتفاع ، فترى الشاب يقصد إلى الفتاة يتزوجها غير عابىء بأخلاقها، أو دينها ،أو مقدار صلاحيتها له ، ولكنه ينظر فقط إلى مالها ،أو مال أبيها ، أو مركزه في الهيئة الاجتماعية ، حاسباً

مقدار ما يعود عليه من وراء هذا الزواج من المال أو الجاه .

ونرى من جانب آخر أن أهل الفتاة إذا قصد إليهم شاب ليخطب ابنتهم بسألوا عما يملك قبل أن يسألوا عن سلوكه وخلقه ، ثم أرهقوه وغالوا عليه فى مطالبهم : مهر ثقيل ، و « شبكة » غالية ، وهدايا لا تنقطع ، ونفقات فى المناسبات المختلفة من أعياد ومواسم ، ونفقات لمظاهر الزفاف والعقد والأفراح ، ينوء بها الكاهل ، ويعجز عنها الاحتمال ، وشروط ليست فى كتاب الله ولا يعرفها شرع الله وتمقتها سنة رسول الله .

هذا كله من شأنه أن يَصرف الناس عن الزواج ، وأن يحوّله عن الغاية الشريفة التى تقصد منه ، ويجعل كلا من الزوجين ينظر إلى صاحبه ، لا على أنه مُعين له على سلوك سبيل الحياة فى يسر وسهولة ، وغبطة وسعادة ، ولكن على أنه مساوم ومماكس يريد أن يستلب منه لنفسه كل ما يستطيع !

إن الزواج ارتباط روحى ، وقرب قلبى ، ليس المال فيه إلا وسيلة لتنظيم الأسرة فى مبدأ حياتها ، فلا تجعلوه غاية إليها تقصدون ، ولها تبتغون .

إن التشديد على الزوج ليس من مصلحة فتياتكم ، ولا من هناءتهن فى حياتهن الزوجية ، فأنتم بذلك تثقلون كاهل الزوج ، فيضطرب فى حياته ويستدين ما لا طاقة له بسداده ، فتنقبض بذلك

نفسه ، ويضيق صدره، ويرجع بكل ذلك إلى زوجته، فيدخل حزيناً ، ويخرج حزيناً ، وينظر إليها نظرته إلى من كانت سبباً فى شقائه . فتسوء بينهما العشرة ، وربما انقطع حبل الزوجية ،فتعود الفتاة إلى أهلها كسيرة حزينة ، فتكون ثقلا على أبيها وأمها ، وربما بذلت نفسها ، وباعت كرامتها .

هذا شأن الذين يرهقون الأزواج بالمغالاة ، أما هؤلاء الذين يبحثون عن مال الزوجة وما ترث ، أو عن جاهها وما يفيدون منه ؛ فهم تجار يلتمسون المغانم لا أزواج ! بل يقول فيهم سفيان الثورى : إذا تزوج الرجلُ المرأةَ وقال: أىُّ شىء لها ؟ فاعلموا أنه لص ! وكأنى بأحدهم وقد جعل المال والجاه قبلته وغايته فلم ينظر إلا إليه، قد أورثه الله الفقر أو الذل أو القطيعة ،على يدى زوجة بخيلة أو لئيمة أو شرسة ، فهو منها أبداً فى حرب عوان ، ثم لعل مالها يفقد ، أو جاهها يضيع . فإذا هو صفر من كل شىء ، وإذا حياته هباء فى هباء .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : « من تزوج امرأة لعزِّها لم يزده الله إلا ذلا ، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقراً، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة ، ومن تزوجها لم يرد بها إلا أن يغض بصره ، ويحَصِّن نفسه ،بارك الله له فيها وبارك لها فيه » .

التشاور بين الأبوين وابنتهما فى شأن زواجها

عن عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أيُّما إمرأةٍ تزوجت بغير إذن وليِّها فزواجها باطل ، فزواجها باطل ، فزواجها باطل » .

وعن أبي موسى رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا زواج إلاّ بولى » .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قلت يا رسول الله تُستأمَر النساء فى أنفسهن ؟ قال : نعم، قلت : إن البكر تُستَأمر فتستحى فتسكت . فقال : سُكاتُها إذنها » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « آمروا النساء فى بناتهن » .

* * *

نرى بعض الآباء يستبد بسلطانه الأبوى فى أمر تزويج بناته ، فلا يحسب لابنته حسابا ، ولا يقيم لرأى أمها وزنا ، ويظن ذلك من مظاهر الرجولة الحازمة ، والولاية القوية . فهو لذلك يزوّج ابنته ممن يشاء ، ويمنعها ممن يشاء ، وقد يدخل الرجل على أهله وأبنائه ، فيفاجئهم بأنه ارتبط فى أمر ابنته فلانة ، لتكون زوجة

لفلان ، وأعطى فى هذا الشأن كلمة لاسبيل إلى نقضها .

ونرى من جانب آخر فتاة خرجت عن سلطان أبيها وأمها وسائر أسرتها ، وارتبطت بحياة زوجية مع شخص لايعرف أهلُها عنه شيئا ، فلا يشعر الأب والأم إلاّ وابنتهما فى عصمة رجل قد ارتبطت به على هذه الصورة المعيبة المثيرة للظنون والقيل والقال .

كلا الأمرين يُعرِّض الأسر لاضطراب قد يؤدى إلى فتن ومصائب لاتقف عند حدّ : فقد تنتحر الفتاة ، وقد تتمرد على هذا الزوج الذى أكْرِهت عليه ، وقد تقيم أمها حرباً شعواء على الأب وعلى الزوج فَيفْسُدُ البيتان ، وتشقى الأسرتان ، وقد يشتد غضب الأب ، ويذكر الكرامة المضيَّعة ، والشرفَ الذى خُدش ، فيفتك بابنته أو بمن اختارته زوجاً لها ، أو يقطع ما أمر الله به أن يوصل من الرحم والبنوة والصهر ، ويحمِّل أمَّها كثيراً من الآلام باللوم والتعنيف .

والرسول صلى الله عليه وسلم يصف بهذه الأحاديث الكريمة ، أسباب الوقاية من هذا الشر المستطير ، فيأمر الأب بأن يأخذ رأى ابنته فى شريك حياتها ، ولن يأخذ رأى أمها التى هى أدرى الناس بأحوالها ، وينهاه عن إكراه البنت على زواج لاترتضيه ولا يركن إليه قلبها ، وقد جاءت فتاة إلى الرسول فذكرت أن أباها زوّجها وهى كارهة ، فجعل الرسول أمرها إليها ، فما شعرت بحريتها فى

أمر نفسها عادت إلى طاعة أبيها فأقرَّت ما صنع ، وقالت : إنما أردت أن أُعْـلِم النساء أنْ ليس للآباء أن يـكرهوا بناتهن !

ويعلن إلى جانب ذلك أن أيةَ امرأة تزوجت بغير إذن وليها فزواجها باطل، ويكرر ذلك ثلاثا ويقول: لا زواج إلا بولى ، فهو بهذين يحفظ للأب سلطته الأبوية ، وكرامته فى أسرته ، ويُـغْنَى بحفظ حياء الفتاة، ويَصونُ أدبَها وسمعتها ، مع تمكينها من فرصة الإعراب عن رغبتها والعمل بمقتضاها .

هذا هو السياج الذى يحفظ الأسرة من التفكك ، ويقيها شر العواصف، ويمكِّـنها من القيام بمهمتها فى المجتمع ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتجه بعد هذا إلى أصحاب الشأن فى أمر الزواج، مرشداً إياهم إلى أساس الاختيار الذى يحقق سعادة الزوجية ، فيقول:

«إذا أتاكم من ترَضَوْن دينه وخلقه فزوجوه، إن لا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير» .

للخاطب أن يرى مخطوبته

عن المغيرة بن شعبة أنه خطب امرأة فقال النبي صلى الله عليه وسلم « انظر إليها ، فإنه أحرى أن يؤدَمَ بينكما » .

« وعن جابر قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا خطب أحدُكم المرأةَ فقدرَ أن يَرى منها بعض ما يدعوه إلى زواجها فليفعل » .

وعن محمد بن مَسلمة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا ألقى الله عز وجل فى قلب امرىء خطبة امرأة فلا بأس أن ينظر إليها » .

وعن أبى هريرة : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فأتاه رجل، فأخبره أنه خطب امرأة من الأنصار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنَظرْتَ إليها ؟ قال : لا . قال : فاذهب فانظر إليها فإن فى أعين الأنصار شيئاً .

* * *

ترى الشريعة الإسلامية، أن رباط الزوجية ميثاق غليظ ، وعهد قوى بين الزوجين . به ترتبط القلوب ،وتختلط المصالح ، ويندمج

كل من الطرفين فى صاحبه ، فيتحد شعورهما ، وتلتقى رغباتهما . ولهذا طلبت الشريعة الاسلامية ممن يريد الزواج ، أن يتعرف بمن يريد أن يرتبط بها ، تعرُّفاً يرشد إلى اتجاهات القلوب ، وإن الأرواح — كما قيل — جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف .

وللناس فى تعرف الخاطب بمخطوبته ، وفى مدى هذا التعرف عادات مختلفة : فيرى كثير من الشرقيين ، وبخاصة سكان الريف والقُرى ، أن رؤية الخاطب مخطوبته أمر منكر ، لايسمح به شرف الأسر ، ولا الغيرة على الكرامة والعرض ، ويرون أن التعارفَ سبيلُه الوصفُ من جارة أو قريبة للمخطوبة . ويرى الغربيون ، ومن يقلدهم من الشرقيين ، أن سبيل ذلك ، العشرة الطويلة ، والاختلاطُ الكثير الذى يسبرُ به كلٌّ من الطرفين غَوْرَ صاحبه ، ويعرف كامنَ أخلاقه ، ولاريب أن كلاًّ من هاتين العادتين بعيد عن الجادَّة ، فهما فى طرفى الإفراط والتفريط ، فإن فى مفاجأة كل من الزوجين لصاحبه من غير أن يسبق بينهما تعارفٌ ما ، تعريضَ الحياة الزوجية للانحلال فى أول أمرها إذا لم تأتلف القلوب وتسكن الضمائر . وإذا كانت هذه العادة فيها من الغلظة ما يقضى على الأسر فى مبدأ أمرها ؛ فإن فى العادة الأخرى المقابلة لها شرا مستطيرا ، وقد يكون فيما نقرأه ونسمعه كل يوم فى حوادث

الخاطبين والمخطوبات — وقد رفعت بينهما الحجب ، ومُكِّنا من الاجتماع فى الأسفار والمتنزهات — ما يغنينا عن التصريح بالآثار السيئة لهذه العادة التى تودى بالشرف والكرامة ، والتى كثيرا ما تسبب إعراض الخاطبين عن المخطوبة . وإذا كانت الفضيلة وسطاً بين طرفين هما رذيلة ، وكان اللبن الخالص السائغ للشاربين يخرج من بين الفَرْثِ والدم ؛ فإن أعدل الآراء فى تعرُّف الخاطب بمخطوبته ، هو ما جاءت به الشريعة الاسلامية ، وتضمَّنه إرشاد النبى الكريم صلى الله عليه وسلم ، فى هذه الأحاديث التى رويناها لكم وهو : أن يَرى كل منهما صاحبه ، وأنه لا بأس أن يجتمعا المرة أو المرّات ومعهما بعض الأقارب ، وحسبنا فى هذا قول النبى صلى الله عليه وسلم للمغيرة : « فإنه أحرى أن يُؤدمَ بينكما » أى تحصل بينكما الموافقة والملاءمة . وهذا إشارة إلى روح الألفة التى تبنى عليها سعادة الحياة الزوجية .

هذا هو حكم الشرع ، وهدى الرسول فى أدب الخطبة ، وهو محقق للغرض ، بعيد عن الشر . فليعتبر به هؤلاء وهؤلاء .

فيأيها الجامدون : خففوا من غيرتكم ، ولا تزجُّوا بفتياتكم فى ظلام قد لا يشرق عليهن نور من أفقه ، ويأيها المسرفون : لا تتركوا الحبل على الغارب ، فإن الشباب جنون ، والعواطف دفّاعة ، والكرامة أعز شىء عند الناس .

إلى الأزواج

« عن أبي هريره رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يَفْرَكْ مؤمنٌ مؤمنةً — يعنى لا يُبْغِضْها — إن كره منها خلقا ؛رضى منها غيره » .

« وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ، وخياركم خياركم لنسائهم »

* * *

إن « الزوجية » لا تؤدى غايتها ، ولا تحقق الأغراض السامية المقصودة منها إلا إذا ترابط الزوجان وتفاهما واحترم كل منهما حقوق صاحبه ، وقام بواجبه نحوه فى صدق وبر وإخلاص ؛ ولم يَشْرع الله الزوجية لتكون شركة جافة لا همَّ لأصحابها إلا أن يحقق كلٌّ واحد منهم مصلحته الخاصة ولو على حساب الآخرين !

لذلك يتجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنصيحة والإرشاد إلى الأزواج والزوجات جميعاً ، ويضع لهم الدستور الذى على أساسه تُبنى البيوت وتَسعد الأسر ، ويَصلح النسل وتقوى الأمة .

وهذان حديثان كريمان ينبه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهما

الأزواج إلى أمرين هما سر السعادة الزوجية ، وهما أهم ما يطلب من الرجل .

يقول لهم : لاتوجد امرأة إلا ولها بعض المزايا ، وفيها بعض العيوب ، وإن من التمس امرأة كاملة من جميع النواحى ؛ فقد التمس محالا : وهب الله هذه حظا من الجمال وإن كان فى خُلُقها شىء ، ووهب هذه حظا من الخُلُق وإن كان فى جمالها شىء ، وفاوَتَ بين هذه الحظوظ والأقسام كما قضت بذلك مشيئته « وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » .

هذه حقيقة من عرفها استراح وأراح ، وأمكنه أن يغض عن العيوب المحتملة بجانب المزايا ، وأن يغفر بعض نواحى الضعف لما يجبرها من نواحى القوة ، وهذا هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم « إن كره منها خلقا رضى منها غيره » وفى ذلك يقول القرآن الكريم « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » .

ينسى بعض الأزواج هذه الحقيقة الواقعة ، فيركز اهتمامه بناحية الضعف فى زوجته متناسيا كلَّ المحاسن فيُشقيه ذلك ويُشقيها ، يَظَل من ناحية يُجسِّم هذا العيب ويتتبع مظاهره ويتألم له حتى ينغِّص على نفسه حياته ، ويغرسَ فى قلبه كراهية زوجته ويظهر ذلك فى تصرفاته معها قصدا أو عفوا فتتألم هى أيضا من

ناحيتها ، وتبادله كرها بكره وإيلاما بإيلام ! وحينئذ يدب دبيب الخلاف ، وتسرى عوامل الشقاء فإما اعتلال بعد ذلك وإما انحلال .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم للأزواج أيضا : إن الخلق الكريم فى معاملة الناس عامة هو علامة الإيمان الكامل ، لأنه دليل على الصفاء النفسى ، والتماس لإحسان الله بالإحسان فى معاملة خلقه ، وإذا كان هذا هو شأن الخلق الكريم فى الصلات العامة بين الناس بعضهم وبعض ؛ فأولى للزوج ثم أولى أن يتمسك به فى أهم صلة وأقوى صحبة ، وهى صلة الزوجية ، ولذلك يقول الرسول « خياركم خياركم لنسائهم » وفى القرآن الكريم « ولا تنسَوا الفضلَ بينكم » وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرمَ الناس مع أهله وأرفقَهم بزوجاته : ما رؤى متجهما فى وجه إحداهن ، ولا غاضبا غضبا يخرجه عن سكونه ورحمته ، ولا سَبَّابا ولا فاحشا ، ولا محتقرا لطعام ، ولا مُؤْثِراً به نفسَه ، ولكن مارضى عنه أكله ، وما كرهه تلطف فى رده ، وما غاب لم يسأل عنه .

أيها الأزواج :

هذه هى أقوال نبيكم ، وهذه هى أفعاله و « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » فاستوصوا بالنساء خيرا ، : لا تستكبروا عليهن ، ولا تَصْخَبُوا فى وجوههن ولا تَبْخلوا ولا تَسْتأثروا ،

ولا تُعنِّفوا فى الصغير والكبير ، ولاتحاسبوا على الفتيل والنقير .

ارحموا النساء فلا تكلفوهن فوق طاقتهن ، ولا تأمروهن بما ليس فى استطاعتهن ، ولا تتهموهن بما ليس فيهن ، ولا تهملوا شأنهن وشأن أولادهن ، ولا تتحكموا فيهن لمجرد الرغبة فى إظهار السلطة وتنفيذ الكلمة .

إن النساء أمانات فى أيديكم ، وإن الله قد استرعاكم هذه الأمانات ، فصونوها وأحسنوا رعايتها يحسن الله إليكم .

obeikandl.com

العدل بين الزوجات

« عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من كان له امرأتان فلم يعدل بينهما ، جاء يوم القيامة وأحدُ شِقّيه مائل »

* * *

جاءنا كتاب مؤثر من سيدة لم تذكر اسمها تقول فيه : « إنها عاشت مع زوجها عمراً طويلا فى حياة رغْدة سعيدة يرفرف عليهما علم الهدوء والمحبة والاستقرار ، لا تَنْقِم منه شيئا ، ولا ينْقِم منها شيئا ، ولكنها فوجئت منذ مدة بزواجه من امرأة أخرى ، فاستأثرت به هذه الزوجة الجديدة حتى أنسته زوجته الأولى ، وأنسته ذلك العهد الطويل الذى قضاه معها هانئا مغتبطا ، تحفظه غائبا وحاضراً فى ماله وشرفه وبيته وأولاده ، وقد أصبح قاسياً عليها ، مهملا شئونها ، لا تراه إلا لماما ، ولا تشعر من جانبه بشىء من العطف الذى كان يغمرها به من قبل ، وطالما استعطفته فلم يعطف ، وطالبته بالعدل فلم ينصف ، وذكّرته الله والحقوقَ وما بينهما من العهد والولد فلم يَثْنه ذلك عما هو سادر فيه من التنكر والقطيعة !

جاءنا هذا الكتاب المؤثر ، وإنا لنعلم أن فى مجتمعنا كثيرات من النساء يشبهن هذه الزوجة المسكينة ، وأن ذلك داءٌ دوىٌ له آثاره السيئة ، ومضارُّه الكثيرة : يعيش الرجل مَطْلَعَ حياته مع زوجة مخلصة يرتضيها ، تقاسمه سراءه وضراءه ، وترضى بقليله وكثيره ، وتعينه على ابتناء مجده، وتدبر له شأن بيته ونفقته ، وربما تجاوزت عن كثير من مطالبها ورغباتها رفقا به ، واقتصاداً فى ماله حتى إذا ارتفع قدراً، أو زاد مالا ، أو لاح له مغنم من أفق جديد تنكر لهذه الزوجة البارة ، وهضمها حقوقها ، وأذاقها مرارة الحرمان . وآلام النكران !

من حق الرجل أن يتزوج ، وقد أباح الله له التعدد رعاية لمصالح وأغراض شريفة ،ولكن وراء هذا الحق واجباً ، عليه أن يرعى فيه ربه ، ويراقب نفسه ، فإن لم يفعل فقد أغضب الله ، وجار على الحق ، وتنكر للوفاء !

ذلك الواجب هو العدل بين الزوجات : به تصلح الشئون ، وتستقر البيوت ، وتجتث العداوات ، ويزول كثير من أسباب الشقاء !

لذلك أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعدل بين الزوجات، وحذرنا من الظلم والجور فى شأنهن ، مبينا لنا أن صاحب الزوجتين كذى الشقين ، لا بد له من توازنهما وإصلاح شأنهما ،

وأن من جار عل إحدى زوجتيه لـيُرضىَ الأخرى، فسيجيء يوم القيامة وأحدُ شقيه مائل ، وهذا تمثيل بارع رهيب لما يكون من عاقبة الظلم والجور يوم القيامة .

ويقول الله عز وجل : « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة» والمعاقة هى التى يظلمها زوجها ويحرمها عطفه ، فلا تعرف لها حالة تستقر عليها : لا هى بالزوجة ، لأنها لا تنال حقوق الزوجة ، ولا هى بالمطلقة فيغنيها الله من سعته !

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدل بين زوجاته فى المبيت ، وفيما يعطيهن من النفقة والعطاء . وكان إذا عزم على سفر وأراد أن يستصحب إحداهن معه، أجرى بينهن قرعة ،فمن صادفها الحظ أخذها معه ، وكان يقول : « اللهم هـذا جهدى فيما أملك ، ولا طاقة لى فيما تملك ولا أملك » يعنى أنه عدل بقدر ما يستطيع فى النواحى التى يملكها وفى قدرته أن يعدل فيها ، أما محبة القلب ؛ فتلك من الله ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها . والعـادل لا يجعل عاطفته سبباً فى ظلم غيره ، واهتضام حقوقه ، وقد كانت عائشة رضى الله عنها أحبَّ نساء النبى إليه ، ومع ذلك لم يكن يميزها على غيرها ، ولما مرض كان يُطافُ به محمولا فى كل ليلة إلى إحداهن ويقول « أين أنا غداً ؟» حتى قلن له ذات يوم « يا رسول الله . قد أذِنَّا لك أن تـكون فى بيت عائشة ، فإنه يشق عليك أن تُحمَل

، كل ليلة ، فقال : « وقد رضيتن بذلك ؟ » قلن : نعم ، قال : فحولوني إلى بيتها ! » .

أيها الأزواج :

هذا هو المثل الأعلى للعدل واحتمال المشاق لتوفية الحقوق، جعلوه أسوتكم يصلح الله بالكم ، ويُذهب أضغانكم ، ويَشف صدور قوم مؤمنين .

obeikandl.com

إلى الزوجاتِ

« عن أبي هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عِظم حقه عليها » .

« وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة » .

* * *

حديثان كريمان يبينان حق الزوج على زوجته ، ويرشدان النساء إلى ركنين عظيمين هما أساس وطيد للسعادة الزوجية ، وعماد متين فى حياة الأسرة .

هذان الركنان هما : طاعة الزوجة لزوجها ، والعمل على كل ما يرضيه .

إن الزوج هو الذى يرعى الزوجة ويحميها وينفق عليها من ماله ، إنه عزها الذى تعتز به ، ونعيمها الذى لا تذوق السعادة والهناءة إلا فى جواره ، إنه هو الذى هيأه الله للسعى والعمل وتحمل المشاق ومواجهة الصعاب ، فمن حقه أن يكون هو رب البيت ورئيسه

المطاع ، ومن واجب المرأة أن تتقبل هذه الرياسة ، بل هذه الرعاية ، راضية مغتبطة ، لا تجد فيها غضاضة ، ولا تبدى منها تبرماً ، هذا هو الوضع الصحيح الذى تصلح عليه الأسر ، وتستقيم به البيوت ، فإذا عُكس هذا الوضع فقد عُكست الطبيعة ، وخولفت الفطرة . قال الله تعالى : « الرجالُ قوّامون على النساءِ ، بما فضّل اللهُ بعضَهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » . « ولهنّ مِثلُ الذى عليهِنّ بالمعروفِ وللرجالِ عليهِنّ درجة » .

وقد عبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن طاعة المرأة لزوجها وامتثالها لأمره بأقصى ما يتصور من معانى الخضوع لبشر : إذ يطلب منها خضوعاً يكاد يقرب من السجود ، وليس ذلك إذلالا للمرأة ، ولا إهداراً لشخصيتها ، ولا إنكاراً لشأنها وقيمتها فى حياة الأسرة ، ولكن لأن مصلحة البيت ، ومصلحتها هى ، لا تقومان إلا على هذا الأساس ، فإن المرأة التى يشعر الرجل معها بأنه صاحب الرأى والتوجيه ، هى التى تكسب قلب زوجها ، وهى التى تنزع منه فكرة التحكم والاستبداد إذا حدثته نفسه بها ، وقد عبرت عن هذا المعنى أسماء بنت خارجة إذ تقول لابنتها وقد زوّجتها : يابنية كونى له مهاداً ، يكن لك عماداً ، وكونى له أمَة ، يكن لك عبداً !

أما تلك التى تعاند زوجها ، وتستكبر على سلطانه ، وتأخذها العزة بالإثم إذا نقدها أو راجعها ، وتجادل فى الصغير والكبير تعنتاً

وإرهاقاً ، فإنها تفتح على نفسها أبواباً من الشر ، وتبذر فى بيتها بذور الشقاق والخلاف !

وإذا كانت الطاعة حقاً للزوج على زوجته فرضه الله ، وقضت به الطبيعة والفطرة ، فإن من حقه عليها أيضاً أن تعمل على مرضاته ، وأن تتجنب كل ما يغضبه ويسىء إليه فى نفسها ، وفى أولادها وفى بيتها ، فإن الله قد جعلها سكناً له ، واطمئناناً لقلبه ، ومتاعاً لروحه ، وإن الزوجة التى تقصد إلى توفير هذه المعانى لزوجها ، وتبذل كل ما تستطيع لإسعاده وإرضاء نفسه ، لهى الزوجة التى تؤدى رسالتها فى الحياة على الوجه الأسمى ، وتقوم لأمتها بأعظم خدمة ، وكم من رجال نبغوا وأفادوا أممهم ورفعوا شأن بلادهم فى ميادين العلم والعمل والاختراع والسياسة والوطنية ، لأن من ورائهم زوجات مَعنيات بهم ، عاملات على إسعادهم ، حريصات على إرضائهم ، لذلك كان صنيع المرأة فى هذا الشأن جديراً بالإكبار ، وجديراً بالجزاء الأوفى عند الله ، وقد أنبأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هذا الجزاء هو الجنة التى أعدت لأهل الإيمان والإحسان !

* * *

أيتها السيدات :

هذا هو أدب النبوة للزوجات : طاعة وخضوع يستقر بهما

النظام ، ويصلح عليهما أمر البيت ، وعمل على إرضاء الزوج تستدام به محبته ، ويرجى عند الله جزاؤه ، وليس على هذه السنة المستكبرات على الأزواج ، ولا المتبرمات بأوامرهم عناداً وإصراراً ، ولا المناقشات المجادلات فى الواضح وغير الواضح ، ولا المقلدات فيما يضر ولا ينفع ، ولا المكلفات بما يرهق ويعجز ، ولا الأثرات ، ولا البَطرات ، ولا المنكرات للجميل ، ولا المتناسيات للإحسان !

أبغض الحلال إلى الله الطلاق

« عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق »

« وعن ثوبانَ، رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة »

* * *

شرع الله الزواج لمقاصد سامية ، وأغراض شريفة ، وجعله نعمة من نعمه العظمى ، وآية من آياته الكبرى ، به تتحقق خلافة الإنسان فى هذه الأرض ، وعمارته لهذا الكون ، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » « وهو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها »

ولن يكون الزواج سكنا للزوجين ، ومودة ورحمة بينهما ؛ إلا إذا أقاما حدود الله ، وأدى كل منهما واجبه لصاحبه ، أما الزواج الذى يفقد هذا المعنى ، وينظر فيه كل من الزوجين إلى

كأنه غريمه أو خصيمه ؛ فهو أشبه بقيد كريه ضم اثنين على
نهما ، فهما جاران بالجسم ، متنافران بالروح !
لذلك حرص الشارع الحكيم على أن تبقى العلاقة بين
ين قوية متينة ، وأن تظل الحياة فى بيتهما صافية سعيدة ،
نا إلى أمور :
نها أنه أمر أولى الشأن ، إذا خافوا مغبة الشقاق والنزاع بين
ين، أن يبعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها، إن يريدا إصلاحا
لله بينهما ، ومن شأن هذا الإجراء أن يكون علاجا تُتَلافَى
ابُ الشر ، وعوامل الفساد ، فكم من خلاف قد انبنى على
تافهة أو أوهام خاطئة ، لاتلبث أن تزول إذا عرضت على
فى جو من الهدوء والإخلاص .
منها أنه أمر الزوج بحسن المعاشرة ، وألا ينساق مع مجرد
ة فيكره زوجته لما يتوهمه من عيب فيها ، أو لما يجسّمه
ان من نقص قد يُغتفر بجانب المزايا ، وعاشروهن بالمعروف
هتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ،
منها أنه نَفَّر الزوجين كليهما من الطلاق ، فأنبأنا بأنه بغيض
ه لاينبغى للرجال أن يسرفوا فيه ، ولا للنساء أن يطلبنه من
جهن من غير بأس ، لأنه رَفْضٌ للنعمة ، وقطع للصلة ،
د لعلاقة قائمة مستقرة ، والله لايحب الفساد ،

ولـكن الشارع الحكيم مع هذا قدر أن العشرة بين الزوجين قد تسوء ، ويتفاقم شرها ، وربما ارتُـكبتْ بسبب ذلك محرَّمات كالظلم والقذف والإيذاء والشَّغب بين الأسر ، فشرع الطلاق تلافيا لذلك « وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته »

هذا هو الطلاق فى أصله ومشروعيته ، ومن الواجب ، ومن الخير للناس ، أن يبقى فى هذه الدائرة التى رسمها الله ، وأن ننظر إليه كعلاج أخير لمرض قد استعصى على جميع ألوان العلاج « تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون »

* * *

لقد تعدينا فى الطلاق حدود الله : اتخذه كثير من الأزواج هزوا ولعبا ، يحلفون به على صحة الأخبار أو عدم صحتها ، ويروّجون به للسلع ، ويجعلونه وسيلة لحمل الناس على مايريدون ، وقد انساقوا فيه مع الغضب أحيانا ، ومع الهوى الفاسد أحيانا ، وهان أمره حتى أصبحت الأسر مهددة بالانحلال ، والبيوت مهددة بالخراب ، والنسل مهددا بالتشرد أو الفساد ! وإننا لنرى الرجل يتزوج اليوم ليطلق غدا ، ويطلق اليوم ليتزوج غدا ، كأن الزواج رداء يستبدله كلما شاء ، وإن هذا والله لظلم عظيم !

وقد اتخذته كثيرات من النساء أيضا هزوا ولعبا ، فترى

الواحدة منهن تسأل زوجها الطلاق ، أو تطالبه به أمام القضاء ، لسبب تافه لايبرر طلبها ، وقد يكون ذلك لأنها تكلفه مالا يطيق ، أو تتناسى ظروفه وأحواله ، أو تحاول أن تفرض عليه مشيئتها ، أو ما إلى ذلك مما تكون هى سببَ النزاع فيه !

أيها الأزواج والزوجات :

احفظوا نعمة الله عليكم ، « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ماتفعلون »

حق الولد على أبويه

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : رأى الأقرع بنُ حابس النبيَّ صلى الله عليه وسلم يُقبِّل ولده الحسن فقال : إن لى عشرةً من الولد ماقبلت واحدا منهم . فقال عليه الصلاة والسلام : « من لايَرحم لايُرحم » .

« وعن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول صلى الله عليه وسلم قال : الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم » .

* * *

أولادنا هم ثمرات حياتنا ، وفلذات أكبادنا ، وزينتنا ، وعدتنا ، وورثة ديارنا وأموالنا وأسمائنا ، وذكرانا من بعدنا !

أولادنا هم أعز الأمانات لدينا وأغلاها ، وأجدرها بأن نحفظها ونرعاها !

أولادنا هم الرجال والنساء فى مستقبل وطننا وأمتنا : غدا يكون منهم الرؤساء والقادة والحماة والرعاة والعلماء والأدباء والشعراء وأرباب الفنون وحملة الأقلام والآباء والأمهات !

لذلك يرشدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأنهم إلى واجبين : أن نجعلهم موضع عطفنا وحبنا ، وأن نربيهم ونصقلهم

على أعيننا ، لنحقق بذلك سعادتهم وسعادة الأمة بهم ، ونقيهم عوامل الشر والفساد فى حاضرهم ومستقبلهم .

إن الولد إذا فقد عطف أبيه أو أمه أظلمت نفسه ، وخبت شعلة الذكاء فيه ، وأغرته نفسه بالتمرد والعقوق ، وربما انحرف إلى طريق الغواية .

وإذا كان الأقرع بن حابس — وهو عظيم من سادة العرب — يتفاخر بأنه رجل مَهيب يترفَّع عن العطف على أولاده ؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يزجره عن هذا المبدأ ، ويشير إليه أن هذه قسوة لا يحبها الله ولا يرحم صاحبها ، وإنما يرحم الله من عباده الرُّحماء ، وقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلاعب الأطفال ويلاطفهم ولا يترفع عن مخالطتهم ، وأنه حمل طفلا وهو يصلى ، وأنهض طفلا من عثرة عثرها وهو يخطب ، وأنه غسل بيده وجه أسامة وهو صبىّ ، وأنه قال « من كان له صبى فليتصابَ له » يعنى فليكن معه كما يكون الصبىُّ مع الصبىِّ ملاطفة له وإيناسا !

هذا هو المبـــدأ السليم الموافق للفطرة والحكمة فى معاملة الأطفال ، لا مبدأ الأقرع بن حابس وأمثاله الذين نراهم فى بيئاتنا الحضرية والريفية !

وعلى الآباء والأمهات واجب آخر للأبناء ، بعد واجب

العطف والرحمة ، نبه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم » :

فمن إحسان أدبهم أن ينشئوهم على حب الدين والوطن والأخلاق الشريفة من الشجاعة والصدق والرحمة والنجدة والحياء والعفة والصبر، وأن يعلموهم الصلاة والمحافظة عليها ، وأن يفرقوا بينهم فى المضاجع كما أمر الرسول .

ومن إحسان أدبهم ألا يملئوا رءوسهم بالخرافات والأهام ، ولا يخوّفوهم « بالبعابع » والعفاريت ، ولا يقصوا عليهم قصص الغيلان ، فإن ذلك يؤثر فى شجاعتهم ويُفسد تصورهم للأمور !

ومن إحسان أدبهم ألا يفضلوا بعضهم على بعض فى مظهر من مظاهر العطف والبر ، فإن ذلك يفسد العلائق بينهم ، ويزرع الضغينة والتنافس السيء فى قلوبهم .

ومن إحسان أدبهم ألا يثيروا أمامهم نزاعا يسمعون فيه ألفاظ السباب ، وألا يتركوهم يختلطون بذوى الأخلاق السيئة من الأطفال .

وأما ما يوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من لزومهم فمعناه أن نراقبهم بأنفسنا ولا نعتمد على الخدم ، ولا نكتفى بالمدرسة والمعلمين، وهذا معنى فى التربية عظيم ليتنا نأخذ به ونسير على هداه ، فإننا قد ألفنا أن نترك أولادنا اعتمادا على غيرنا :

يخرج الأب إلى عمله صباحا ، ثم يعود بعد أداء عمله، فلا يستقر فى بيته إلا ريثما يتناول طعامه وينال بعض راحته ثم يخرج إلى المقهى أو المنتدى الذى ألف أن يقضى فيه سهرته ، فلا يجد بعد ذلك وقتا يراجع فيه ما فعله أبناؤه ، وهل هم يقومون بواجباتهم أو لا يقومون ، وهل يستفيدون من دروسهم أو لا يستفيدون ، ولهذا يفسدون أحيانا ، ويرسبون أحيانا ، ويضعفون أحيانا ، وهو عنهم غافل ، ثم تراه يملأ الدنيا صياحا ، ويندب سوء حظه وحظ أولاده وربما سب المدارس والمعلمين !

والأم تترك أطفالها للخدم ، مؤثرة أن تجلس مجلسا مع صديقاتها ، أو تستغرق وقتا طويلا فى إعداد زينتها ، أو فى عملٍ خارجَ بيتها ، والطفلُ مسكين إن لم يصبه مرض جسمى ، أصابه مرض نفسى خلق ، وقد قيل « أعط ولدك خادمك يكن لك بدل الخادم اثنان » ، ومعنى ذلك أن الولد ينشأ على صفات الخادم إذا وكل إليه ، فينشأ كأنه خادم مثله !

لهذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « الزموا أولادكم » وإنها لنعم الوصية !

عناية الإسلام بالبنات

« عن عائشة رضى الله عنها قالت : جاءتنى مسكينة تحمل ابنتين لها ، فأطعمتُها ثلاثَ تمرات ، فأعطت كل واحدة منهما تمرة ودفعتْ إلى فيها تمرةً لتأكلها فاستطعَمتْها بنتاها — أى طلبتا منها أن تطعمهما — فشقت التمرة التى كانت تريد أن تأكلها بينهما ، فأعجبنى شأنها فذكرتُ الذى صنعتْ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن الله أوجب لها بها الجنة ، أو أعتقها بها من النار » .

« وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مامن أحد يدرك ابنتين فيحسن إليهما ماصحبتاه إلا أدخلتاه الجنة » وفى رواية « من كانت له ابنتان أو أختان » وفى رواية أخرى أن رجلا سأله : « وواحدة يارسول الله ؟ » فقال : « وواحدة » .

* * *

نعرف أناسا يكرهون البنات ، ويحزنون إذا بُشِّروا بمولدهن ، ويتنكرون لنسائهم ، ومنهم من يطلقهن لذلك أو يضارُّهن بزوجات أخريات ، ونعرف أسرة وصل بها الحد فى كراهة البنات إلى أن الأب والأم اتفقا على حرمان بناتهما من الميراث وتخصيص

الأبناء به من دونهن ، ونعرف رجالا أخوة أشقاء قد استولوا على نصيب أخت لهم من تركة أبيهم ، وحرموها ثمرته هي وأولادها وزوجها ، مع أنهم يعلمون فقرهم وعيلتهم ، ونعرف امرأة مات عنها زوجها ، وترك لها طفلتين فقيرتين ، ولم يكن لها إلا أخ شقيق ، فلجأت إلى داره بابنتيها ، فقبلها أخوها على مضض ، وعاشت معه تخدمه وتخدم أولاده وزوجته بطعامها وطعام طفلتيها ، وهو فى بسطة من العيش ، ونحبوحة من النعيم !

هذه أخلاق الجاهلية الأولى التى حاربها الإسلام ونعاها على أهلها ، مازالت تجد فينا من يعتنقها ويسير على سبيلها : الجاهليون هم الذين كانوا يكرهون البنات « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء مابشر به » وهم الذين كانوا يعضلونهن ويمنعونهن حقوقهن ، وكانوا يصلون فى هذه الكراهية إلى حد الوأد ودفنهن فى التراب على الحياة « أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب . ألا ساء مايحكمون »

وقد جاء الإسلام بإنصاف المرأة ، والاعتراف بحقوقها كإنسان يشارك الرجل فى حياته ، ويعاونه عليها : بيَّن أن الذكورة أو الأنوثة خاضعة فى الخلق والتكوين لمشيئة الله وسنته الكونية « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوِّجهم ذكرانا وإناثا » ، وبين أن للمرأة مثلَ ماللرجل ، وأن الله ينظر إليها فى

التكاليف كما ينظر إليه سواء ، ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب » « إنى لاأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى. بعضكم من بعض» « فاستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن »

وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء خيرا ، وأمر بتربية البنين والبنات جميعا ، وخص البنات بمزيد من العناية فورد عنه أنه قال: « من عال جاريتين أى بنتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين — يشير بإصبعيه — » وأنه قال « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله ، أو كالقائم الذى لايفتُر، أو كالصائم الذى لايُفطر» وهاهى ذى عائشة أم المؤمنين تصوِّر لنا هذه الصورة الإنسانية الرائعة ، صورة الأم الرحيمة التى حرمت نفسها التمرة — ولعلها كانت فى حاجة إليها — لتقسمها بين ابنتيها ؛ وكيف عجبت عائشة لهذا الروح ، روح البر والإيثار الذى يدل على سمو فى النفس، ولايصدر إلا عن قلب مفعم بالإيمان، ولذلك أنبأها النبى صلى الله عليه وسلم — لما علم — بأن الله قد أوجب لها الجنة ، أو أعتقها من النار ، وأن هذا شأنه عز وجل مع كل من أدرك ابنة له أو بنات، أو أختا أو أخوات ، فأحسن إليهن ، وقام بتربيتهن خير قيام ، وفى معنى الأب مع بنته ، الجد مع

بنت ابنه أو بنت ابنته ، والعم مع ابنة أخيه وكل ذى رحم لا توصَل إلا به مع ذات رحمه !

* * *

إن الظلم لبشع ، وإن إنكار الحقوق لطغيان ، وإن أظلم الظلم أن تجحف بمن ينتظر منك العدل والإنصاف ! وإن أكبر الطغيان أن تطغى على من جعلك الله له حمى من الطغيان !

وإذا احتاج الأب إلى من يثير عطفه ورحمته لابنته ، أو احتاج الأخ إلى من يناشده الرحم بينه وبين أخته ؛ فعلى الأخلاق ، بل على الدنيا ، العفاء !

obeikandl.com

اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم

« عن النعمان بن بشير ، أن أباه بشيراً نَحلَه بعضَ ماله فقالت أمّه عمرة بنت رواحة : لا أرضى بهذه العطية حتى تشهد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطاق أبوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبره بما كان من عطية ولده النعمان ، والتمس من رسول الله أن يَشْهد على هذه العطية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : له أخوة ؟قال: نعم . قال الرسول: فكلهم أعطيت مثل ما أعطيته ؟ فقال: لا . قال الرسول : فليس يصلح هذا . أرجعْه إنى لاأشهد إلا على حق ، لا تُشهدنى على جَوْر . أشهدْ على هذا غيرى. اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم ، إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم ، كما لك عليهم من الحق أن يعدلوا لك فى البر . أيسرك أن يكونوا لك فى البر سواء ؟ قال : نعم . قال الرسول : فلا إذَن ، وأمره برَدّ العطية ، فرجع بشِير فى عطيته » .

* * *

وردت هذه القصة فى كتب السنة الصحيحة ، وتلقاها المحدثون فى أصلها بالقبول ، وجاءت بروايات متعددة ، اختلفت فى التعبير

عن إنكار النبي صلى الله عليه وسلم لصنيع بشير ، فى تخصيص ولده النعمان ببعض ماله ،دون أن يكون لسائر أخوته مثله ، وقد جمعنا لكم تلك الكلمات على اختلافها ، وكان منها الأمر برد هذه العطية ، وأنها عمل لا يصلح ، وأنها جور والرسول لا يشهد على جور ، وأنها منافية لتقوى الله التى تتطلب العدل بين الأولاد ، وأنها مما يقطع برّ الأولاد بآبائهم ، ولا ريب أن شيئا واحداً من هذا كله كاف فى حرمة هذا الصنيع الذى يصنعه كثير من الآباء فى أبنائهم تلبية لشهوة شخصية ، أو لعاطفة زوجة محبوبة ، أو تأثراً بمظاهر مكر وخداع يظهر به بعض الأبناء ، أو تفضيلا للذكر على الأنثى ، أو خوفا من انتقال المال بواسطة البنت إلى زوجها ، أو غير ذلك من الأسباب التى ملأت نفوس كثير من الناس، وهى أسباب فاسدة فى ذاتها ، لا ينبغى لعاقل أن يتخذ شيئا منها أساساً لتصرفه فى ماله على هذا الوجه الذى يترتب عليه من المفاسد ما لا تحتمله حياة البيوت والأسر ، فنسبة الأبناء إلى الآباء نسبة واحدة ، لا يفضل أحدهم أخاه فى شىء منها ،وقد جعل الله بها للجميع حقوقا متساوية فى مال أبيهم ، وأوصى الآباء بمراعاتها ، للذكر حقه وللأنثى حقها، وأنزل فى كتابه: «يوصيكم الله فى أولادكم» وهذا التصرف لا يَرْضى صاحبُه بقسمة الله، فيتولى هو بنفسه القسمة فيعصى الله ، ويتعدى حدوده ، ويقطع ما أمر الله به أن يوصل : يُوغر به صدر الأخ

على أخيه ، وصدر الأخت على أختها ، وصدريهما معا على أبيهما، فتتفرق بذلك الأسر ، وتنشق عصا الرحم، وتشتعل بين أبناء الرجل الواحد ، وفى البيت الواحد ، نار العداوة والبغضاء ، وقد رأينا أنْ قَتَل الأخُ أخاه ،والولدُ أباه ،وخرجت البنت على أبيها،واحتربت مع أخيها ، وأنكر أخوها نسبتها ، هكذا رأينا ، وهكذا فعل الآباء بالأبناء !

هذا هو حكم الشرع فى تفضيل بعض الأولاد على بعض . فهل يسمع هؤلاء الذين يوقظون شرعة الجاهلية الظالمة ، فيخربون بيوتهم بأيديهم؟ هل يسمعون هذه التحذيرات وهذا الإنكار البالغ ؟ هل يرون هذه الآثار السيئة التى تنزل بهم وبأعقابهم ؟ هل يسمعون ويَرَوْن فيكفوا عن أهوائهم الفاسدة ، وشهواتهم الضالة المضلة ؟ « ومَنْ يعص الله ورسوله ، ويتعد حدوده ، يُدخله ناراً خالداً فيها وله عذابٌ مهين »

* * *

أيها المُشَرِّعون: إذا كان الشرع والقانون يوجبان الحجر على المدين محافظة على حق الدائن، ومنع الوقف فى بعض صوره اتقاء لفتنة التفريق بين الأبناء، أو لفتنة الحرمان للبنت ، فإن الحجر على مثل هؤلاء الآباء الذين يفتنون أبناءهم بتصرفهم، ويزعزعون عناصر الأسرة ويُهددون كيانها لأوجب عند الله، وألزم فى نظر القانون والعدل .

حق الوالدين على الولد

« عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله . من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك » .

« وعنه رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رغم أنف ، ثم رغم أنف ، ثم رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر — أحدهما أو كلاهما — فلم يدخل الجنة » .

* * *

إذا جاز لمتحدث أن ينبه إلى خلق شريف فيذكر محاسنه ، ويرغب فيه ، فإن « بر الوالدين » لا يحتاج إلى شيء من ذلك . إنه مقتضى الفطرة السليمة ، يستغنى بنفسه عمن يلفت إليه ، أو يحض عليه ، ويكفى أن يرجع المرء إلى قلبه وعواطفه ، ويستعيد شيئاً من ذكريات طفولته ، وما كان من أبويه معه : فى يقظته ومنامه ، فى صحته ومرضه ، فى رضاه وغضبه ، فى غيابه وحضوره ، وأن يتابع تطورات حياته منذ كان جنيناً فى ظلمات الرحم إلى أن كان رجلا قوياً ذا كيان مستقل : من احتمله وهناً على وهن ؟ من

وضعه كرهاً ؟ من رعاه ؟ من أطعمه وسقاه ؟ من علمه ورباه ؟ من بذل راحته ليهنأ ، وضحى بسعادته ليسعد ، واحتمل العناء فى ماله وجسمه وصحته وأعصابه ليوفر له حياة الرغد والأمن والاستقامة ؟

ألا إنه لا يوجد فى الحياة من يعتبر بحق مثال التضحية الصامتة الصابرة المثابرة الراضية المطمئنة كالوالدين بالنسبة لولدهما ، لذلك كان برهما مقتضى الفطرة ، لأنه شكر للنعمة واعتراف بالجميل « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ » .

وقد أمر الله عز وجل بالإحسان إلى الوالدين فى غير موضع من كتابه ، وأبرزه إبرازاً يدل على مزيد العناية والاهتمام : قرنه بعبادته وتوحيده : « واعبدوا اللهَ ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً » ، « قل تعالوا أتلُ ماحرَّمَ ربُّكم عليكم : أن لاتشركوا به شيئاً وبالوالدينِ إحساناً » ، وطلب أن يُقرن شكرهما بشكره : « أنِ اشكر لى ولوالديك إلىَّ المصير » ، واستعمل فى حقهما ألفاظاً ذات معان خاصة تزيد قوة عن صيغة الأمر ، كلفظ « وصينا » الذى كرره مراراً ، وكلفظ « قضى » الذى ينبىء عن ثبوت الحق بمقتضى الواقع والطبيعة .

ولعل أروع وأجمع ما ورد من القرآن الكريم فى هذا الشأن هو قوله تعالى : « وقضى ربُّكَ ألا تعبدوا إلا إياهُ ، وبالوالدينِ إحساناً ، إما يَبلُغَنَّ عندَكَ الكِبرَ أحَدُهما أو كلاهما فلا

تقُلْ لهما أُفٍّ ولا تنهرْهما وقل لهما قولاً كريماً ، واخفِضْ لهما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرحمةِ وقل ربِّ ارحمهُما كما رَبَّيانى صغيراً » .

سبع وثلاثون كلمة صُدِّرت بكلمتين قويتين فى معناهما : « وقضى ربك » ثم ذكر شأن الإله وعبادته فى أربع كلمات منها فقط « أن لا تعبدوا إلا إياه » ، وخصصت إحدى وثلاثون كلمة لشأن الوالدين فى أسلوب المناشدة للأبناء ، وفى صورة قوية ذات تأثير فعال : تأمر بالإحسان المطلق فى كل شىء : فى القول ، فى الفعل ، فى المعاملة ، فى الطاعة ، فى العطف والبر ، ثم تذكر حالة الكبر التى يبدو فيها احتياج الوالدين إلى ولدهما ، والتى يرهف فيها إحساسهما فتطلب أن ينتهز الابن هذه الفرصة فيرد الجميل فى كرم وإحسان ، دون تأفف ولا تبرم ، ويخفض الجناح تذللا ورحمة ، ويعتبر نفسه بعد هذا كله غير قادر وحده على رد الجميل ، وتوفية الحق ، فيستعين بربه ، ويلجأ إليه ، ويدعو لهما قائلا : « رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً » .

هكذا يرشدنا الله إلى حق الوالدين ، وقد طلب منا الرسول صلى الله عليه وسلم أن نحسن صحبتهما ، وأرشدنا إلى أن كبر الأبوين أو أحدهما عند الابن نعمة يجب عليه أن يبادر بشكرها ، وأن يتخذها وسيلة إلى رضى ربه ، والفوز بجنته ، وإلا رغم أنفه ، وضل سعيه ، وأفلتت الفرصة من يده .

وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم حق الأم خاصة فذكرها ثلاث مرات ، لأن جميلها أعظم : « حملته أمه وهناً على وهن» ، ولأنها إلى البر والإحسان أحوج .

وقد جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنه فى الجهاد ، فقال : ألك أبوان ؟ قال : نعم . قال : ففيهما فجاهد — يعنى فأحسن إليهما ، وقم بحقوقهما ؛ يكن لك أجر المجاهدين !

وجاءه رجل فسأله : هل بقى من بر أبوىّ شىء أبرُّهما به بعد موتهما ؟ قال « نعم : الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لاتوصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما ! »

أما بعد فهذه هى منزلة الأبوين ، وتلك حقوقهما فى كتاب الله وعلى لسان رسوله ، فما بال أقوام يتنكرون لآبائهم وأمهاتهم أن آتاهم الله منصباً أو خوّلهم نعمة ؟ ما بالهم يسيئون إليهم ، ويبخلون عليهم ولا يحتفظون بكرامتهم ، ويحكّمون فيهم نساءهم : إن عاشوا معهم عاشوا عيشة الذل والهوان ، وإن استقلوا بأنفسهم ذاقوا مرارة الفقر والحرمان ؟ !

ألا إن هذا لخروج على مقتضى الفطرة وواجب الدين ، وغمط للمعروف ، وإنكار للجميل ، ولن يجتمع هذا فى قلب واحد مع الإيمان .

حق الرحم

« عن عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الرحم معلقة بالعرش ، تقول : من وصلنى وصله الله ، ومن قطعنى قطعه الله » .

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه : « أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها اسماً من اسمى ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته » .

* * *

الرحم كل من بينك وبينه قرابة ، فالإخوة والأخوات وأولادهم رحم ، والأعمام والعمات وأولادهم رحم ، والأخوال والخالات وأولادهم رحم.

والرحم بين الناس بمثابة الخيط الذى يضم الحبات المتفرقة فيتكوّن منها عقد واحد . له اسم واحد ، ووجود واحد ، وقوة واحدة ، وذلك العقد هو الأسرة ، ومن الأسرة تتكون الأمة، وكلما كانت الأسرة متماسكة أفرادها ، مترابطة قلوبها ، متبادلة عواطفها ، متحدة فى الشعور بحاجات أفرادها ، كانت الأمة كذلك

مترابطة متماسكة متضامنة ، مصلحة الفرد فيها من مصلحة الجماعة ، ومصلحة الجماعة من مصلحة الفرد ، لاتعرف الانحلال ولا التخاذل ولا التواكل ، وبذلك تحيا الأمة حياة قوية مستمدة من نفسها وشعورها، وحسبها ذلك عزة وسعادة ! وإذا كان الإحسان مطلوباً بين الناس عامة قياماً بحق الإنسانية المشترك ، ومطلوباً بين المؤمنين على وجه خاص قياماً بحق الإخوّة الدينية، فإنه بين الأقارب مطلوب على وجه أخص وعلى نحو ألزم ، قياماً بحق الرحم التى كانت محل عناية عظيمة فى الوصايا الإلهية وفى الهدى النبوى الكريم :

يقول الله تعالى : « وأولوا الأرحام بعضُهم أولى ببعضٍ فى كتاب الله » .

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام : « والذى بعثنى بالحق لايقبل الله صدقة من رجل وعنده قرابة محتاجون لصدقته ويصرفها إلى غيرهم ، والذى نفسى بيده لا ينظر الله إليه يوم القيامة » .

وقد رتب القرآن الكريم على قطيعة الرحم ، سوء العاقبة ، وغضب الله ولعنته ، فقال : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم؟ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » ، وقال عليه الصلاة والسلام « أسرع الخير ثواباً البرُّ وصلة الرحم ، وأسرع الشر عقوبة البغىُ وقطيعة الرحم ، وحسب القاطع لرحمه أن من وصلها وصله الله ، ومن قطعها قطعه الله .

أيها المستكبرون على أرحامهم ، المترفعون بجاههم ووظائفهم على أهليهم وقراباتهم . أيها الآكلون لحقوق أخواتهم أو عماتهم أو خالاتهم والضعفاء من ذويهم ، المنكرون لأنسابهم فى سبيل ذلك الجشع ظلماً وعدواناً . أيها المسرفون فى الهوى والملذات ، الباخلون فى الحقوق والواجبات ، المكدرون لصفو الأمهات والبنات والأخوات والعمات . أيها القاطعون لما أمر الله به أن يوصل : إليكم جميعاً قول الله عز وجل .

يأيها الناسُ اتقوا ربَّكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوْجَها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً ، واتقوا اللهَ الذى تساءلون به والأرحام ، إنَّ اللهَ كانَ عليكم رقيباً » .